عبرات على أخاديد الوطن

رواية

محمد الورداشي

الطبعة الأولى

2020م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: عبرات على أخاديد الوطن

اســـــم المـؤلف: محمد الورداشي

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــــداع: 20449 / 2020

الترقيـــم الدولي: 5 - 90 - 6830 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

عبرات على أخاديد الوطن

رواية

محمد الورداشي

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى...

الطفلِ حنظلة، الذي لا يزال مُصرّاً على عدم إدارة وجهه إلى الخلف،

الشعبِ الفلسطينيّ الذي أحبّه حبّاً يقرّبُ بُعْدَ المسافة، ويبني جسراً للعبور،

كلّ شهداءِ الفكر في العالم العربي والإسلامي،

والديَّ اللذينِ أفنيا زهرةَ عمرِهما حتى ينقذاني من بحرِ الجهلِ المدلهمِّ.

محمد الورداشي

****

تقديم

قلمٌ مسكونٌ بهموم الوطن والتوق إلى غدٍ أفضل...

يسطّر أخاديدَ الظلم لوطنٍ جريحٍ يعاني الفقر والتجهيل.

يحارب بالكلمة... فيغدو الحرف طوق نجاة.

يغدو الحرف بداية طريق لمسار تتشابك فيه المنعرجات.

طريق يتطلب السير فيه جرأة على البوح.

هذه الرواية بوح من طينة أخرى.

اختلطت فيها كلّ الألوان ليتولد منها لون متفرد.

لون في طور التشكل.

إنه لون المبدع محمد الورداشي.

الدكتورة ربيعة العربي

****

1

الساعةُ تشيرُ إلى السابعة صباحاً، حيث الهواءُ الباردُ الرطبُ يلفح الوجوهَ المغبرةَ، ويداعبُ الأجسادَ العاريةَ. المكانُ شاسعٌ وأبوابُهُ متعددةٌ، لكنّ كلَّ واحدٍ منها يقودك إلى خارج المكان أو داخله، والناسُ مكتظون متزاحمون، وألوانُهم مختلفةٌ بين السواد والبياض والحمرة، وملابسهم تختلف باختلاف الأمكنة التي أتوا منها إلى مدينة الدار البيضاء، حيث الشوارعُ المتعددةُ، والأحياءُ المختلفةُ، والأجناسُ المتباينةُ المتعايشةُ، والسياراتُ والحافلاتُ التي تملأ الأرجاءَ تلوثاً وضجيجاً.

في هذه الأجواء، وصل أحمد إلى المحطة الطرقية بعد رحلة شاقة ومتعبة، دامت عشر ساعات ونصف الساعة. كان غارقاً في النوم قبل أن يصرخ السائق في وجوه الركاب، وأمارات الجدية تطفو على محياه:

- على سلامتكم، لقد وصلنا مدينة الدار البيضاء.

رد عليه أحد الركاب الذي ما زال يتثاءب من شدة النوم:

- هل تجاوزنا حيّ سيدي معروف؟

يجيب السائق وقد بدأ الغضب يعلو ملامح وجهه المستدير:

- صباح الخير، لقد تجاوزناه منذ نصف ساعة، كما أنني ناديت فيكم طويلاً أننا اقتربنا منه لمن أراد أن ينزل، ونحن الآن في المحطة.

لم يعجب هذا الكلام عمر ذا الوجه الصغير الأبيض، والعينين الجاحظتين، واليدين الطويلتين الباطشتين اللتين تتصلبان كلما دخل في شجار مع أحد أهل قريته، لذلك ردّ بحدة بالغة:

- أنتم لم توقظونا، ألم تعرفوا أننا لم ننم الليل كله؟

يسأله السائق والعجب والاستغراب يلتهمانه:

- وما السبب؟

- لأن حافلتكم قديمة مهترئة، ورائحتها نتنة تزكم أنوف ركابها، كما أن سائقها متهور، ويبدو أنه تناول مخدراً ما...

أثار هذا الكلام حفيظة السائق الذي شمّرَ على ساعديه، ثم تحرك تجاه عمر الذي نهض هو الآخر متأهباً للعراك، انقض عليه، فحاول أن يوجه إليه لكمة، لكن الآخر تنحى جانباً، ما جعل يد السائق تصطدم بزجاج النافذة بقوة كبيرة.

تكسر الزجاج، وأصيبت يد السائق اليمنى بجروح بليغة، فتدفق منها الدم تدفقاً حتى كاد يملأ المقعد الذي كان عمر جالساً عليه. أغمي عليه، وأثيرت ضجةٌ كبيرةٌ في الحافلة، قال أحد الركاب:

- هذا صباح عسير..

تعالت أصواتهم وهم يشيرون بأصابعهم إلى عمر، قائلين:

- أنت السبب..

فصرخ فيهم قائلاً:

- قولوا كلمة الحق أيّها المنافقون، ألم تسمعوني كم مرة كررت له أني أود النزول في حيّ سيدي معروف؟

ردّ عليه أحدهم بعينين محمرتين غارقتين في جمجمته النحيفة، وقد كان يرتدي لباساً تقليدياً فضفاضاً:

- بلى، كلامك صحيح. لكن، كان عليك أن تلزم الصمت منذ البداية حتى لا نصل إلى ما نحن غارقون فيه الآن.

تدخل راكب آخر، يبدو من ملامح وجهه أنه في الثامنة عشر من عمره، كان يرتدي قميصاً أزرق يكاد يلتصق بجسده، وسروالاً أسود، وحذاءً لامعاً له مقدمةٌ تشبه رأسَ الحية:

- حاولوا أن تحضروا البصل بسرعة حتى ننقذ الرجل.

- "هل ستعد لنا طاجينا هنا"؟

أتى هذا الصوت خافتاً دون أن يُعرف صاحبه، لكن الجميع رآه سخرية من الموقف الذي علق فيه عمر والركاب جميعهم.

حاول مرافق السائق الاتصال بالشرطة مرات عدة، دون أن يفلح في ذلك.

إزاء هذا المأزق، تدخلَ أحمد، الشاب الذي يبلغ من العمر تسعاً وعشرين سنة، ذو الوجه العريض، والملامح الجدية، له عينان كبيرتان واسعتان سوداوان، وأنف طويل شامخ، وبشرته ميالةٌ إلى السواد. كان هو الآخر يرتدي قميصاً أبيض أُدخلَ بعضه في سرواله الأسود، وحذاءً أنيقاً، فانطلق يقول وأماراته تنم عن رباطة جأشه:

- لن نتصل بالشرطة؛ لأن ما حدث اليوم قد حدث مثيله مرات كثيرة، بل لم يمضِ يوم إلا وتشاجر فيه شخصان في الحافلة. لذلك، فلتطلب منه السماحة يا عمر، فهو قد استعاد وعيه الآن.

ثم التفت نحو الركاب موجهاً إليهم كلامه بحزمٍ شديدٍ:

- كما أن عمر لم يضرب السائق لكي نقول إنه اعتدى عليه، بل هو الذي أخطأ. إذاً، سيكون عليه وزرُ ما اقترف في حق نفسه، ومن ثم، فليتحمل مسؤوليته.

بهذه الكلمات الحازمة أنهى الأمر، فقد أفحم دعاوى الركاب ومرافق السائق، كما أنه قدم عزاءً رقيقاً للسائق في حق نفسه.

نزل الركاب من الحافلة الواحد تلو الآخر، وهم يمشون الهوينى كأنهم حبالى، ويتمايلون كأن سيقانهم واهية رخوة.. كانت وجوههم واجمة كأنهم عائدون من مأتم حزين، وملابسهم رثة تظهر للناظر إليهم أنهم أهل القرى، وبعيدون عن حياة البذخ والترف، قريبون من الفقر والتقشف والزهد. نظرة متفحصة لملامح وجوههم قمينة بأن تطلعه على أنهم خاضوا حروباً نفسية مريرة قبل أن يغادروا مسقط رأسهم، إنهم حزينون كئيبون.

كان أحمد يمشي بتؤدة وهو يدير بصره يميناً وشمالاً، والحيرة بادية على محياه. لقد كان سادراً تائهاً وسط الجموع الغفيرة ذات الوجوه المختلفة. وبينما هو على هذه الحال، سمع صوتاً يناديه من الخلف فالتفت، ليرى عمر يركض وراءه منادياً:

- أحمد، انتظرني دقيقة من فضلك..

تجمد في مكانه وأوجس خيفة في نفسه. وما هي إلا دقيقة حتى كان ماثلاً أمامه، بقامته الطويلة، وحذائه الكبير كأنه جندي فرّ من ساحة الوغى، ثم طفق يقول ولعابه يتطاير رذاذاً:

- نسيت أن أشكرك.

رد والاستغراب بادٍ على وجهه:

- ولمَ ستشكرني؟ أنا لم أفعل شيئاً كبيراً يستحق الشكر..

- كلا، يا صديقي، أوَلا تعلمْ أن من شكر الناس شكر اللهَ؟

- صدقت، يبدو لي من كلامك أن لك حظّاً من الوعي، قل لي: هل سبق لك أن دخلت المدرسة؟

تهَلَّلَ وجهه فرحاً حتى كادت وجنتاه تتفتقان احمراراً، ثم رد بسرعة:

- نعم، لقد حصلت على شهادة الباكلوريا منذ سنوات.

- وهل أتممت دراستك؟

طأطأ رأسه قبل أن يجيب والحسرة باديةٌ عليه:

- الكلام كثيرٌ يا صديقي، فهلّا...

- أكمل يا عمر، فإنني ارتحت لك كثيراً.

- فهلّا ذهبنا إلى مقهى ما، حتى أحكي لك كلَّ شيءٍ؟

لم يكن أمامه سببٌ للرفض؛ لأنه كان متعباً جداً، وساقاه لا تكادان تحملانه إلى حيث يريد، كما أن ملامح وجهه تعرب عن أنه يتضور جوعاً، لذلك لم يتوانَ في القول:

- على الرحب والسعة. لكن، هل تعرف مقهى جيداً هنا؟

رفع رأسهُ فجأةً، والخجل يأخذ منه كلَّ مأخذٍ:

- لا، يا صديقي، أنا لم أزُر هذه المدينة قبل هذه المرة، لذلك أراد السائق وصديقه استغلال سذاجتي ليوقعا بي في مكيدتهما.

فاجأه هذا القول ففغر فاه متسائلاً:

- كيف تفطنت إلى كونهما سيكيدان بك؟

- تفطنت إلى الأمر منذ وضعت أغراضي في الحافلة، لكنني، تعبت من الوقوف هنا، فهلا أخذتنا إلى مقهى؟

ابتسم في وجهه، ثم ردّ بسرعة:

- بكل سرور..

اتجها نحو باب المحطة الكبير وهما يحملان حقيبتيهما فوق كتفيهما، وما أن بلغا الشارع حتى انطلق أحمد يستوقف بعض المارة، ليسألهم عن مقهى قريب. وبعد محاولتين، تمكنا من معرفة الاتجاه الذي سيأخذهما إلى حيث يريدان، فانطلقا صوبه وهما يتبادلان الكلام بصوتٍ مرتفع...

****

2

بقي السائق مدة في الحافلة وقد وضع رأسه على مقودها. كان يحس بمرارة تسرعه، وفشل خطته، ما جعله يخاطب مرافقه بصوتٍ يوحي بالحسرة:

- يا خالد، ألم ترَ كيف خرجنا خاويي الوفاض هذه المرة؟

ردّ بتأسفٍ وتأففٍ:

- نعم، لم نحصل على مبلغ أغراضه، كما أنك آذيت يدك.. يا له من صباح شاق.

- كنت أنوي تفتيش أغراضه حين وقفنا للاستراحة، لكنني، لم أستطِع.

سأله بنبرة لومٍ وعتابٍ:

- ولمَ لمْ تفعل؟ ما الذي منعك من ذلك؟

صوّب نظره إلى الأفق، فتنهد تنهيدات كأنه تذكر جرح سنين مضت، ثم قال:

- لأني كنت خائفاً..

- ممَ؟

قالها، وقد جحظت عيناه، فرد الآخر، مبيناً السبب:

- لقد تذكرت قصة السائق ميمون.

- ومن يكون ميمون هذا؟ وما قصته؟

تهلّلَ الدمعُ ساخناً على خده، ما بعث الاستغراب في نفس مرافقه، ثم نطق بكلمات متقطعة، وموجعة:

- كان صديقاً لي، وابن بلدتي. كان رجلاً طيباً؛ يساعد كلّ من مدّ إليه يده طلباً لحاجةٍ ما. وحتى الركاب لم يكن يضيق الخناق عليهم إذا ما تمادوا وتعنتوا معه، ولا يغضب إن سألوه بسذاجة.

زادت الدموع تهلّلاً من عينيه، وارتفع صوت بكائه كأنه طفلٌ صغيرٌ أُنتُزع من حضن أمه، ثم أردف بعدما حاول كفكفة دموعه:

- أذكر أنه قام بفعلٍ عظيمٍ ذات يوم. لقد كان أحد المسافرين مريضاً ضعيفاً، ذا وجه شاحب متجعد، وساقين رقيقتين، وقد كانت زوجته بصحبته، كان من عادتها أن ترافقه حيثما ارتحل، وتأخذه من طبيب إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى قبل أن يخبرها أحد الأطباء، في الأخير، أنه مريض بسرطان الكبد، ومن ثم فإن نسبة عيشه لا تتجاوز الخمسة في المائة.

تجرع جرعة ماء، ثم أردف:

- لما رأى ميمون هذا الرجلَ، تقدم نحو زوجته فخاطبها مستفهماً:

- يبدو أن السيد متعب كثيراً؟

فردت والدمع قد حُبس في مقلتيها:

- نعم، إنه مريض مرضاً خطيراً..

كان البكاء لا يطاوعها في تتمة كلامها، بيد أن ما تلفظت به من كلمات، كان كافيا ليجعله يتأثر، ثم يدخل يده في جيبه، ويخرج قدراً من المال، فيقدمه إليها لعلّه يخفف من محنتها.

توقف السائق فجأة عن الكلام، فظل سادراً في الأفق، كمن يطلب عوناً وقوة يسعفانه في الحكي. لكن مرافقه استحثه متوسلاً لكي يتمم له ما بدأه، فانطلق يسترسل في الكلام برباطة جأش:

- كانت لميمون زوجة صعبة العِشرة، إذ كثيراً ما فخرت عليه بحسبها ونسبها، ولم يمضِ يوم إلا وأمطرته وابلاً من الشتيمة. كانت تفرض عليه أن يحضر مبلغاً مالياً محدداً، كلما عاد في نهاية الأسبوع.

أخرج من جيبه منديلاً، ونشف به جبينه، ثم أردف:

- في نهاية الأسبوع الذي التقى فيه مع ذلك المريض وزوجته، عاد إلى بيته دون أن يحضر المبلغ المتفق عليه، وإنما كان في حوزته مبلغ ضئيل لا يسعفه وحده في تناول وجبات يوم واحد. ومن ثم، دخل معها في مشادة عنيفة حتى كاد الجيران يتدخلون بينهما.

صمت دقيقتين ظلّ خلالهما يداعب ألمَ يده المجروحة، ثم أردف وهو يئن:

- منذ ذلك اليوم، بدأت حياته تتغير إلى الأسوَأ، إذ بعدما كان يرأف بالناس لم يعد يرى فيهم إلا ضحايا لا بد من الإيقاع بهم حتى يحصل على مال وافر. فبدأ يفتش أغراض الركاب في كل محطة استراحة، وهذا ما جعله

يعيش صراعاً مريراً مع ما يقترفه، وما يعارضه ضميره، إلا أن الرغبة في كسب المال قد غلبت على الضمير.

- وهل استمر على هذه الحال؟ أوَ لمْ يتبْ؟

- لم يتوقف، بل استمر في خديعته سنةً كاملة، حتى باتت الشكاوى تتكاثر على صاحب الحافلة. لكن ميمون، كان بارعاً في دفع التهمة عن نفسه وإلصاقها بالذين يرافقونه.

تأسف طويلاً، ثم استأنف قائلاً:

- ذات ليلة، أوقف الحافلة في محطة استراحة. وبينما كان الركاب منشغلين بالعشاء، تسلل خفية إلى حيث توجد الأغراض، وما أن فتح الباب وبدأ يفتشها حتى لدغته أفعى تسللت من إحدى الحقائب، فسقط أرضاً يرغي ويزبد.

عقب باندهاش:

- أواه، لا شك أنه مات..

- لحسن حظه لم يمت، بل نجا بأعجوبة؛ لأن اللدغة كانت خفيفة، وسرعان ما تم إنقاذه..

- وماذا فعل بعد ذلك؟ هل عاد إلى عمله نفسه؟

ابتسم السائق بعد حزن طويل، ثم نطق بكلمات سريعة:

- طلق زوجته وتزوج أخرى في مدينة الدار البيضاء، لها معملٌ للخياطة، وقد أرسلته إلى الحج. لقد أصبح ميسور الحال، كما أنها أوكلته مهمة تسيير المعمل، واحتمال كبير أن يغدو في ملكيته..

حكّ مؤخرةَ رأسِهِ بتؤدة، ثم أردف:

- بلغني منذ سنوات، من قبل أحد السائقين أنه أنجب معها ولدين.

كان ردّ فعل مرافقه تجاه القصة مزيجاً من الضحك والحزن، لكنه أحس بمرارةٍ كبيرةٍ، لهذا خاطب السائق، منوهاً بتريثه في تفتيش أغراض عمر:

- لقد أبليت حسناً؛ لأنك لم تفتش أغراض ذلك الماكر.

عقب الآخرُ بعدما تنفس الصعداء:

- حسناً فعلنا، والآن، هيّا لنفطر.

كان الشارع مليئاً بالمارة الذين يجوبونه طولاً وعرضاً، والسيارات والشاحنات التي ملأت الأرجاء ضجيجاً، ودخانها جعل منظر الحيّ كئيباً، وهواءه متعفناً مغبراً.

كان المقهى ذا مساحة صغيرة، لهذا كان نصف زبنائه يجلسون على الكراسي الموضوعة على الرصيف، ما يجعل المارين أمامه مضطرين إلى الانحراف عنه، ومن ثم المرور في الشارع. كانت رائحة السجائر تزكم الأنوف، والأجساد ذابت عرقاً بفعل الحرارة، وضيق المكان الذي لا يضم إلا نافذة واحدة، ومن ثم تصفعهم رائحةُ عرقٍ نتنةٌ.

وأنت تدلف إلى المقهى، ترى العيونَ محدقةً، والوجوهَ واجمةً، والناسَ أصنافاً مختلفين من حيث لباسُهم وأجسادُهم وحركاتُهم وسكناتُهم، وطريقةُ جلوسِهم، ونوعيةُ مشروباتهم، وأشكالُ أحاديثِهم، مما يظهر الاختلاف الاجتماعي الصارخ بينهم.

فأما من حيثُ اللباسُ، فإنهم ينقسمون إلى ثلاث مجموعات مختلفة: الأولى يرتدي أصحابها أطماراً باليةً مُرَتَّقةً من أماكنَ مختلفةٍ، تتنوع ما بين أقمصة متباينة الألوان والأشكال، فضلاً عن سراويلَ طويلةٍ تكاد تخفي الأحذيةَ المتآكلةَ من أقدامها كلها، وثمة صنفٌ من هذه المجموعة يكتفي بأن يرمي جلباباً بالياً على جسده النحيف، ويضعَ على رأسه طاقيةً بيضاءَ تضم بقعَ أدرانٍ لا تخفى على الناظر إليها من قريب. أما الثانية، فأصحابها يرتدون قمصاناً تسر الناظرين، وشعورهم واقفة شامخة، وعلى أعناقهم شالات مزركشة الألوان، مختلفة الأشكال. أما سراويلهم، فإنها تنتمي إلى الموضة الحديثة بحيث ترى فيها أشكالاً صغيرة، وعند الركبتين خروقاً تجعل الناظر إليها، غير العارف بمرجعيتها الثقافية، يعتبرها سراويل حمقى ومجانين، أو خرقاً متداعيةً ليس إلا.

في حين أن المجموعة الثالثة، تضم أناساً يرتدون ألبسةً رسميةً تنم عن كونهم يشغلون مناصبَ هامةً في جهاز الدولة، لذلك غالباً ما يكون لباسُهم أسودَ اللونِ من القميص إلى الحذاء. ولعلّ هذا ما جعل الناس يتقون شرهم، ولا يجلسون في الجهة التي يملؤونها.

كثيراً ما يلاحظ الجالس في المقهى أن الفئة الأولى تتحرك كثيراً، وأن حديثها يدور في غالبيته في دوامة المعيش اليومي: لقمة العيش، وأعباء المأكل والمشرب والإيجار... وهذا ما يَظهر أن أصحاب الفئة الثانية والثالثة يضربون عنه صفحاً؛ فهذا المقهى الصغير يضم ثلاث طبقات اجتماعية مختلفة من حيث أساليبُ عيشها. فأصحاب الألبسة الرسمية تجدهم جالسين خارج المقهى حيث الهواءُ، والإمعانُ في الشارع ومن يجوبونه، في حين أن ذوي الألبسة المعاصرة يَلُونَ الفئةَ الأولى، لكن داخل المقهى. أما ذوو الأطمار الرثة، فإنهم يقبعون في مؤخرته حيث يتكدسون كالنحل على طاولة واحدة، ويحتسون شاياً.

فتشا طويلاً عن مكان للجلوس، فوجدا زاويةً مظلمةً، انزويا فيها منتظريْن من النادل أن يأتي. بادر أحمدُ عمرَ بالسؤال:

- ها نحن قد وصلنا المقهى، فهلا بدأت الحديث؟

فاجأه السؤال، وما أن همَّ بالحديث حتى مثلتْ أمامهما الفتاةُ النادلة، قاطعةً خطَّ الحوارِ بينهما، فسألتهما عن المشروب الذي يريدانه:

- مرحباً، ماذا تريدان أن تشربا؟

لم ينبسْ أيٌّ منهما ببنت شفة، فقد تفاجآ بالفتاة الماثلة أمامهما، بلباسها الأسود اللامع، وقامتها الرشيقة الطويلة، ووجهها المستدير الأبيض ذي الخدين المحمرين، والشفتين المدورتين، والعينين العسجديتين اللتين

تجذبان كل من نظر إليهما. كانت تقف وقفةَ ثباتٍ دون وجل ولا خجل، مما يدل على رباطة جأشها، وثقتها الكبيرة في جمالِها.

أمام هذا المشهد، ابتلع أحمدُ ريقَه، ثم تمتم بكلمات متقطعة:

- شاي، لو سمحت، وخبزاً..

عقبتْ برشاقتها الجذابة:

- أمرك...

ثم انصرفت تاركةً الحيرةَ تجول وتصول في نفسيْهما، ما دفع بعمرَ إلى القول:

- إن هذه الفتاةَ جميلةٌ يا صديقي، ألا تشاطرني الرأيَ؟

أجابَ ووجههُ يتفصدُ عرقاً ساخناً:

- وهل يُخفى القمرُ؟ إنها جميلة..

- نعم، لذلك ابتلعت لسانك في حضرتها. لقد أنستنا موضوعنا.

- نعم.. نعم، فلتبدأ إذاً، بما شئت.

- أنا لم أتمم دراستي.

- هذا أخبرتني به في المحطة، لكن، ما السبب؟

تنهد تنهيدة طويلة، ثم انطلق يتكلم بنبرة ممزوجة بالحنين والوجع:

- في بداية السنة، كنت حريصاً على النجاح حتى أتمم مساري الدراسي في الجامعة، وهذا ما جعلني أواظب على حضور الحصص الدراسية في الوقت، ومراجعة الدروس كل ليلة. لقد كانت بداية موفقة إلى أن التقيت بفتاة،

كانت تدرس في السنة الأولى من الباكلوريا، لقد كانت جميلة يا أحمد، وعيناها هما أكثر شيء يأسرني فيها، ويجذبني إليها حتى..

توقف عن الكلام فجأة بعدما رمق العرق يتفصد من جبين أحمد، وقد امتقع لون وجهه، واشرأب عنقه، وتاه عن حديثه. أخذت الحيرة تجول وتصول في نفس عمر، فاضطر إلى الالتفات إلى الخلف لعلّه يرى ما استرعى انتباهه، فعلم أن الفتاة النادلة كانت تتجه صوبهما، وقد أحضرتِ الشاي والخبز، فظهرتِ ابتسامةٌ ماكرةٌ على محياها.

ولم تمضِ إلا ثوانٍ حتى مثلت أمامهما، فانطلقتْ تعتذر منهما، وبصوت هادئ رقيق، قالتْ:

- معذرة عن التأخر؛ لأننا اضطررنا إلى إحضار الخبز من الفرن القريب من هنا.

تمتم أحمد بكلمات، وعيناه مركزتان على وجهها:

- نحن من يجب عليه الاعتذار منكم.. لا بأس ما دام المقهى مريحاً.

ابتسمتْ ابتسامة عميقة، اضطرته إلى ابتلاع ريقه مجدداً؛ لأنه لم يفهم ما تضمنته تلك الابتسامة الخاطفة من تلميحات، وطرداً لأسئلة عمر وتأويلاته باغته بالكلام:

- سنتناول فطورنا أولاً، وبعد ذلك، ستكمل قصتك لعلني أقتبس منها ما يجعلني أتذوق الحبّ.

- لن تستفيد شيئاً من قصتي سوى الشوق والمرارة. تناول فطورك أولاً، وبعده نتمم الحديث.

شرعا في تناول فطورهما، لكن الفتاة ما أن لبت طلبات الزبائن حتى انزوت إلى ركن تحدق في أحمد، وبدأ هو الآخر يبادلها بنظرات مليئة بالتودد والرغبة في اللقاء.

في هذه الأثناء، فاجأه عمرُ، يسأله عن مذاق الشاي، وطعم الخبز:

- ما رأيك في هذا الخبز؟ ألا يبدو لك يبساً وجافاً؟

أطبق ثوانٍ، ثم أردف:

- حتى الشاي، لم يعجبني مذاقه.

- ربما لديك مشكل في لسانك، افطر وحسبك انتقاداً.

بهذه الكلمات توقف الحديث بينهما، فانشغلا في تناول الفطور، ولما انتهيا طلب منه تتمة حديثه عن الدراسة. فبدأ في تتمة قصته:

- قلت لك إن عينيها كانتا أكثر شيء يجذبني إليها حتى أني لم أكن أنام الليل؛ لأنني أبِيتُ منشغلاً بها، محاولاً جمع شتات ما بقي في ذاكرتي من صورتها.. لقد كنتُ أحبها يا صديقي.

- وهل كانت تبادلك الشعورَ نفسَهُ؟

- هذا ما عرفته لما تكررتِ اللقاءاتُ بيننا، إذْ كنت أتغيب في بعض الحصص لكي أراها. ولما اشتدتْ نارُ الحبِّ في نفسي، قررت الزواج منها، لذلك فاتحتُ والديَّ في الموضوع.

قاطعه أحمد بسؤاله:

- ألا ترى معي أنك تسرعت قليلاً؟

- كلا، لم أتسرع، بل إنني تأخرت كثيراً، ووالدي لم يبدِ أيَّ اعتراضٍ، لكن أمي كانت ضد الفكرة..

- ولمَ اعترضتْ؟ ألمْ تعجبها الفتاةُ؟

- الأمرُ لا يقفُ هنا. ففي البداية، كان موقفها الرفض، بررت ذلك بكوني ما زلت تلميذاً أدرس، والزواج مسؤولية كبيرة. وهذا ما شغلني كثيراً؛ لأني كنتُ أودُّ الحصولَ على الفتاة بأية وسيلة كانت، ما دامتِ الغايةُ تبررُ الوسيلةَ.

- ربما، لكنّ الغايةَ ليست دائماً مبرراً للوسائل التي نعتمدها في سبيل بلوغها؛ لأن بُعدَها الإنسانيَّ هو الذي يضفي مشروعيةً على وسائلها، وما دامت تؤدي إلى المصلحة الإنسانية المشتركة.

- أنا لم أقل العكس، وتماشياً مع فكرتك، فإن غايتي كانت أسمى حتى وإن بدت فردية على الأقل في بدايتها. المهم، تم الاتفاق على أن الزواج سيتم بعد العمل، ولما حصلت على الباكلوريا، بذلت جهوداً جبارةً للحصول على عمل، لكنني لم أجد ما كنت أتمناه.

- ولكنك اشتغلت؟

- نعم، اشتغلت في الحقول حتى تعبت دون طائل، لهذا، قررت البحث عن عمل خارج البيت، فاشتغلت مع جارنا في ضيعته، ولما تآكل جسدي، ولم

أتمكن من جمع مبلغ الزواج، عزمت على الصبر لبعض الوقت حتى اتصل بي عمي لأعمل معه هنا.

- تقصد عمك القاطن في حي سيدي معروف؟

- نعم، ذكرتني، سأتصل به الآن..

قاطعه متوسلاً:

- لا تتصل به الآن، فأنت ما تزال متعباً. سنذهب عند صديقي في حي سيدي عثمان، لنقضي عنده الليلة، وفي الصباح يمكنك الاتصال بعمك.

لم يبدِ أي اعتراض، فقررا مغادرةَ المقهى، والاتجاهَ إلى حيث يسكن صديقه. لكن قبل أن يغادرا، طلب أحمد من النادلة الحساب، منتهزاً الفرصة ليتعرف عليها:

- هل يمكنك أن تعرفيني بنفسك؟

ابتسمت بعدما طأطأت رأسها، ثم أجابت وقد احمرت وجنتاها:

- بالطبع، أنا فاطمة من مدينة أكادير، و...

قاطعها وقد علتِ الفرحةُ وجهه:

- أحمد، من الجنوب.. هل أنت متزوجة؟

قالها ثم نظر إلى صديقه نظرة سريعة؛ لأنه كان يرصدهما من بعيد وأمارات القلق تأخذ من تحركاته كل مأخذ؛ لقد ظل يجوب المكان ذهاباً وجيئة دون أن يدري ما سيفعله.

ضحكت للمرة الأولى، ففتحت فمها المدور، وبدت أسنانها البيضاء الناصعة، لكنها سرعان ما عادت إلى جديتها، لتردّ بحزم:

- فاجأني سؤالك..

- ولمَ؟

- هل يعقل أن تعمل امرأة متزوجة بين هذه الحشود من الكلاب الضالة التي تبحث عن فريسة؟

- ليس عيباً أن تعمل في مقهى أو غيره، ما دامت ظروفها تجبرها على ذلك، وما دامت حريصة على شرفها.

بدأت الصرامة تطفو على وجهها، فظلت تفرك يديها وتلتفت يمنةً ويسرةً، ثم عقبت:

- أنت لم ترَ كيف يتعاملون معي، ولا نظراتهم التي تتراوح بين الإعجاب تارة، والرغبة في جسدي تارة أخرى. وإن رفضت، لا ألقى منهم إلا نظرات شزراء..

- أفهم من كلامك أنك لست متزوجة، فهلّا أعطيتني رقم هاتفك حتى أتصل بك؟

- حسناً.

أخرج هاتفه من جيبه بسرعة البرق، وانطلق يسجل الرقم فيما كانت فرائصها ترتعد وهي تتمتم بالأرقام. أما عمر، فلم يكن أمامه إلا الانتظارُ

والنظرُ من بعيد. كان الجالسون داخل المقهى يتناقشون فيما بينهم، ولكل منهم رأي.

قال أحدهم مخاطباً آخر يجلس جانبه:

- يا لها من لقيطة، لاحظ كيف تنظر إليه، وكلها سعادة.

يرد الآخر وقد حرك رأسه يميناً وشمالاً:

- يبدو أنه أغراها بالمال، لذلك أعطته رقم هاتفها. إنه صيادٌ ماهرٌ.

هكذا كانت حال لسان الجالسين المتوجسين، فيما سجل هو رقمها ثم دفع ثمن فطورهما، فانصرف تجاه صديقه. لقد مل عمر من الانتظار، وكانت له رغبة شديدة في لوم صاحبه عما فعله، لكنه آثر الصمت، وفي صمته، فهم أحمد ما يخبئه في نفسه.

****

3

قضى الصديقان الصباحَ كلَّهُ في المقهى حيث يتحاوران: عمر يحكي قصته بمأساة، والآخر يستفهم ويستفسر بحثاً عن موعظة أو عبرة يتأسى بها في حياته رغم فارق السن بينهما.

كان المنظر في الخارج كئيباً مغبراً، والمساء بدأ يقبل زحفاً بأجوائه المختلفة. كانت الشمس صفراء خجولة، والسماء محمرة، والهواء بارداً في شهر آذار، لذلك ترى الناس متزاحمين، ومسرعين في خطوهم لا يلتفت أحدهم إلى الآخر. كانوا يرتدون لباساً يقي أجسادَهم لسعاتِ البردِ الخفيفةَ.

وفي هذه الأجواء المسائية، استقلّا سيارةَ أجرةٍ صغيرةً، ثم انطلقا يتبادلان أطراف الحديث:

- قل لي يا أحمد، هل حقاً تريد لقاءها؟

- وهل لديك شك في ذلك؟ ولمَ أخذتُ رقمَها إذاً؟

أزال العرق من جبينه بيده الضخمة، ثم أجاب بتودد:

- إنني أخاف عليك، إنها شرٌّ فاحذرها..

استغرب كلامه هذا، خاصة أنه لم يعرف الفتاة حق المعرفة حتى يمكنه إصدار حكم عليها، لذا، سأله بسرعة:

- ولماذا ستخافُ عليَّ منها؟

- إنها بنتُ المدينةِ، وهنَّ لسنَ صالحاتٍ.. هذا ما أخبرتني به والدتي، وقد أوصتني بألَّا أثق بهن.

- هذا شيءٌ عجيبٌ، وكيف علمتْ والدتك بهذا؟

صمت ثوانٍ، ثم أردف وقد اتسعت عيناه:

- وهل زارتِ المدينةَ يوماً؟

- والدتي لم تغادرِ البلدةَ قطُّ، ولكنها تشاهدُ التلفاز بإدمان.

- وما علاقة التلفاز بهذا الرأي الذي رسَّختهُ فيك؟

رمقه في حيرة من أمره، فعقب مستفهماً:

- ألا ترى التفسخ والانحلال اللذين نشاهدهما في القنوات صباح مساء؟ أولمْ ترَ كيف بدأ سكانُ القرى ينجرفون وراء تلك القيمِ الممسوخة؟

- كلامك صحيح من وجهة النظر التقليدية. لقد تبدل الوقت يا صديقي، وما تتحدث عنه بامتعاض بات يسمى حضارة، كما أن الفتيات يصعب التحكم فيهن بقيم بالية تجاوزها العصر.

حدق فيه بحدة، وضرب كفاً بكف، مبدياً سخطه على هذا الكلام، لذلك ردَّ بغضب:

- أفهم من كلامك أنك تؤيد تبني تلك القيم الممسوخة. هل ترضى أن ترى ذلكَ المشهدَ الدنيءَ في أسرتك؟

لم يكن سائق السيارة غائباً عمّا يجري من حديث بمقربة منه، لذا تدخل دون أن يستأذنهما، قائلاً:

- بالله عليكم، ماذا جنينا من القنوات التلفزية غير الويلات والمصائب. فشبابنا وشاباتنا صاروا مقلدين لكل ما رأوه فيها، من لباس ومأكل وطريقة كلام... لم نعد نستطيع الحديث مع أبنائنا؛ لأنهم باتوا منتمين لعالم لا قبل لنا به، ويخاطبوننا بكلمات لم نسمعها من قبل.

بدا له أن عمر والسائق كليهما لم يفهما كلامه، وقد انحرفا عما كان يصبو إليه من ورائه. لذلك، استجمع كل قواه، ثم خاطبهما بهدوء بالغ:

- أنتما لم تفهما كلامي. وما أقصده هو أن قيم الآخر التي تصبها وسائل الإعلام على رؤوسنا صباح مساء، وما تتضمنه الكتب المدرسية منها، قد فرضت نفسها رغماً عن أنوفنا، كما أن أطفالنا وشبابنا اطمأنوا إلى هذا التقليد. ومحاولة محاربة هذه القيم ستجعلنا كمن يصب الزيت في النار.

أجال بصره فيهما لحظة، ثم أردف:

- ما أقصده هو أن نتعامل مع هذه القيم بنوع من الغربلة: أي أن نأخذ منها ما يساير نمط حياتنا، ونَذَرَ ما يخالفه.

أبدى عمرُ حركات تنم عن عدم اقتناعه بهذا الكلام، فاكتفى بالتساؤل:

- وهل يمكننا أن نأخذ الإيجابيات دون أن ندفع ثمن السلبيات من مخزوننا الثقافي والقيمي؟ يبدو لي أنك...

قاطعهُ صوتُ أحدِ المارة فجأة:

- "يا حمار، هل أنت أعمى؟".

كان هذا القول موجهاً إلى السائق؛ لأنه ضاعف من السرعة حتى لا يدركه الضوء الأحمر، فعقب معزياً نفسه:

- ألا تريان؟ هذا نتاج القنوات التلفزية.. لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

استغربا هذا المشهد المفاجئ؛ لأنهما كانا يسمعان كلماتٍ نابيةً منذ أن انطلقت السيارة، وشتائم تأتي من هنا وهناك، لذلك اكتفيا بالصمت منتظرين الوصول إلى المكان الذي تفصلهما عنه دقائق قليلة. كان أحمد قد عرف الحي بعدما قدم له صديقه وصفاً وافياً، وها هما الآن قد خرجا من الشارع الرئيس، ودخلا في زقاق ضيق، حيث توجد أمامه حديقة واسعة المساحة، مخضرة العشب، مليئة بالأسر الذين يجلسون جماعة، ويشكلون دائرة، يقهقهون بأصواتٍ عالية تارة، ويطبقون سارحين ببصرهم في الأفق تارة أخرى.

في الجهة الأخرى من الحديقة، يوجد مسجد كبير، أمام بابه يجلس ثلة من الأطفال مكدسين، ومادين أيدهم لكل من أراد دخوله.. يرتدون أثواباً بالية سوداء، وينتعلون نعالاً متداعية الأطراف ممزقة، وكل منهم يمسك باليد اليسرى كيساً بلاستيكياً، ويحرك أسفله ثم يدفعه إلى الأعلى باليد الأخرى. كانوا دائماً غائبين عن الوعي، بحيث يفتحون أعينهم بعد لَأْيٍّ، لتشعَّ منها حمرةٌ ليست طبيعية، ووجوههم كئيبة وبئيسة.

توقف الصديقان لحظة أمام هذه المشاهد البشرية المتباينة؛ لأن الحديقة تضم أناساً مختلفين من كل النواحي. لقد علما أن هذه الرقعة الجغرافية

المحدودة تحوي الصالحين والطالحين. وبعد لحظات، أخرج أحمد هاتفه، فهاتف صديقه بحيث يضحك تارة، ويحك رأسه تارة أخرى، فيما كان عمرُ مشدوها صوب كرسي في الحديقة، تجلس عليه فتاة ذات الخمس عشرة سنة، وبرفقتها طفلان صغيران لا يتجاوز عمر أحدهما السادسة والآخر الثامنة.

لم تمضِ بضع دقائق حتى رأيا شخصاً يقترب منهما، وكلما اقترب كثيراً اتضحت ملامحه أكثر، إذ كانت قامته قصيرة، ووجهه مستطيل الشكل، وعيناه ضيقتين، وبشرته سوداء. لوح لهما بيده، فرد عليه أحمد بالإشارة نفسها، وقد تهلّلَ وجهُهُ فرحاً.

بعد ثوانٍ قليلة، كان الصديق أمامهما، فانطلق يصافح أحمدَ بفرحة وانشراح، ويعانقه بحرارة، بعدها التفت إلى عمر و قال:

- عمر.. هذا صديقي توفيق.

فاكتفى الآخران بتبادل ابتسامة مليئة بالتودد. حملا حقيبتيهما، فسارا معه جنباً إلى جنب حتى بلغوا زقاقاً ضيقاً، حيث الأطفال يلعبون وأصواتهم تتعالى، وآخرون جالسون أمام أبواب بيوتهم يحدقون في الصديقين دون أن ينبسوا ببنت شفة، لكنهم كانوا يرغبون في معرفة هذين الشخصين، ومن أين أتيا.

لقد كان توفيق يسكن هذا الحي منذ خمس سنوات، إذ يكتري غرفةً في الطابق الأول من المنزل، لذلك كان جميع السكان يعرفونه حق المعرفة، إنهم

يعرفون من أين أتى، وما عمله، ومتى يغادر البيت ومتى يعود، كما أنهم يعرفون ماذا يأكل؛ لأنهم كانوا يراقبون كل صغيرة وكبيرة، حتى يتخذها الرجال موضوعاً يُتداول في المقهى، وفي الحديقة حيث يجتمعون للعب الشطرنج، والنساء في المناسبات والحمام. ويظل الوضع قائماً حتى يظهر وافدٌ جديدٌ على الحيّ، فيغدو مادةً دسمةً للقيل والقالِ.

لما بلغوا المنزل فتح الباب وهو يردد:

- مرحباً بالشباب.

ابتسم أحمد، ثم عقب:

- شكراً صديقي، يبدو لي أن المقام طاب لك في هذا الحيّ فأقمت.

- نعم، أقمت فيه لأنني لم أكن أريد السكن قرب الحيّ الصناعي، فثمة ضجيجٌ وصخبٌ دائمان ليل نهار، كما أن المتسكعين وممتهني النصب والنهب قد فرخوا هنالك، وفي كل مكان.

ابتسم أحمد ابتسامة عريضة، ثم أكد كلام صديقه وهما يتبادلان النظرات.

كان البيت مربع الشكل، إذ أن طوله يكاد يتساوى مع عرضه، وبمجرد ما تدلف إليه، تجد سريرين في الجهة اليسرى، أحدهما وضعت عليه أفرشة نظيفة ومنظمة، وعلى الآخر أخرى مهترئة مغبرة، ومتناثرة هنا وهناك.

أما الجهة الأخرى، فإنها تضم أغراض توفيق: حقيبة كبيرة، وأفرشة موضوعة في أكياس بلاستيكية قديمة. وجانب هذه الأغراض، توجد أوانٍ وفرنٌ متوسطُ الحجمِ، وقنينةُ غازٍ كبيرةٌ زرقاءُ اللونِ، وثلاجةٌ صغيرةٌ ذاتُ

بابٍ واحد، وضعت فوقها أحذيةٌ مختلفةُ الألوان والأشكال، لكنها تشترك في كونها متداعيةً متآكلةً.

جلس توفيق على سريره، وطلب من الصديقين الجلوس بعدما أزالا حذاءيهما ونزعا ملابسهما. فنهض ثم أخذ حقيبتيهما ووضعهما فوق أغراضه، وهو يقول معتذراً:

- اسمحا لي صديقاي عن هذه الفوضى، فأنتما تعرفان حياة العزوبية كيف تكون.

ابتسما في وجهه، ثم عقبا:

- لا عليك، فكلنا مررنا، وما نزال، من هذه الوضعية.

- ما رأيكما في أن نعد طعاماً؟ يبدو لي أنكما لم تأكلا شيئاً منذ الصباح..

وافقاه فيما ذهب إليه، فانطلق يجمع الأواني التي سيحتاجها لإعداد الأكل، ثم أخرج الخُضار من الثلاجة، وقطعة من اللحم، فشرع في الإعداد، فيما ظل عمر ممدداً على السرير الآخر بعدما افترش غطاءً غليظاً، ووسادة مزركشة لكنها مغبرة، ما جعله ينفضها حتى يزيل غبارها. أخرج أحمد هاتفه، وطلب من توفيق جهاز الشحن، فبدأ يراسل فاطمة.

أغمض عمر عينه وهو ممدد، فاستسلم للنوم، فيما كان الآخر يرتب الخضار في الطاجين بعدما وضع اللحمَ فوق البصل، فالجزر والجلبانة، ثم قطعاً

صغيرة من البطاطس، وأخيراً وضع قليلاً من المقادير ثم صب فوقها الزيت، وأوقد النار ثم وضع الطاجين فوقها.

التفت إلى أحمد، فألفاه يكتب على هاتفه ويبتسم، فعلم أنه يتواصل مع شخصٍ ما، لذلك بادره بالكلام:

- كيف كانت الرحلة؟

- وهل يخفى عنك تعبها، ها هو عمر شاهد على ذلك.

ضحكا كثيراً، ثم عقب الآخر متسائلاً:

- أهو من الجنوب؟

- إنه من نواحي مدينة مراكش، رمت به الأقدار، كما فعلت معنا، إلى هذه المدينة، كما أن ما حدث معه هذا الصباح جعله يعاني في أول يوم له هنا.

شخصت عيناه، فسأله والحيرة تسري في نفسه:

- ترى، ماذا جرى في الصباح؟ هل تعرض للسرقة؟

- هو لم يُسرق لكنه كاد يكون ضحية. لقد أخبرني في المحطة أنه أحس بتكالب السائق ومرافقه عليه، إلا أن التعب منعنا من تتمة الحديث في هذا الأمر. دعه حتى يستيقظ ويتمم لنا.

- حسناً. كيف هي الأجواء في البلدة؟

اغرورقت عيناه، فأردف:

- مضى عامان لم أزرها، ألا تعلم كم أحترق شوقاً لوالدتي وإخوتي وباقي الرفاق؟

- الأمر صعبٌ عليك، فأنا منذ يومي هذا اشتقت لأهلي رغم المشاكل التي يئن بها بيتنا.

تنهد طويلاً، ثم استرسل:

- أما البلدة، فحالها تبكي العين، وتدمي المهج. لقد يبست الأرض بأشجارها ونخيلها لندرة الأمطار، والناس هناك يعانون قسوة العيش وجفاف البلدة، ويواسون أنفسهم في انتظار الذي قد يأتي وقد لا يأتي. ألا تدري أن كل الشباب هاجروا إلى المدينة بحثاً عن لقمة العيش، ودفعا لهجمات الجوع والعطش الشرسة عن أسرهم؟

عقب متأسفاً:

- إن هذا لا يبشر بالخير، فما علينا إلا أن ندعو الله سراً وجهراً حتى يمطر علينا حياة وخيراً.

ألقى نظرة على الطعام، ثم أردف:

- يبدو أن الغداء ينتظرنا، فهلّا أيقظت صديقك؟

اقترب منه، فانطلق يحركه بتؤدة، ويكلمه بهمس حتى يستيقظ. وبعد ثوان، كان مستيقظاً، فتوجه نحو الصنبور ليغسل يديه، فيما وضع توفيق مائدة خشبية صغيرة ذات ثلاث أرجل، دائرية الشكل، وبنية اللون، وسط الغرفة، ثم وضع عليها الطعام والخبز، وما أن عاد عمرُ حتى انطلقوا يأكلون دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة...

4

أنهت عملها في الساعة الرابعة والنصف مساء، فأزالت لباس العمل، ثم قدمت الحساب لصاحب المقهى وهي مستعجلة من أمرها، وعلى حين غرة فاجأها قائلاً:

- ما بالك مستعجلة هذا اليوم؟ ألا تودين الانتظار قليلاً حتى أوصلك؟

ردت وقد كبل الارتباك لسانها:

- لا.. لا، سآخذ سيارة أجرة؛ لأنني أحس تعباً شديداً ينخر عظامي.

وهكذا، أنهت الحوار بسرعة، ثم حملت حقيبتها، وتصفحت هاتفها لثوان قبل أن تغادر المقهى بخطوات سريعة، وما أن بلغت الشارع الرئيس حتى لوحت بيدها لسيارة أجرة فصعدت، ثم خاطبت صاحبها:

- حي الياسمين، لو سمحت.

انطلقت السيارة تلتهم الإسفلت، والشمس بدأت تغيب شيئاً فشيئاً؛ لأن الفصل كان شتاء، ومن ثم، كان برده قارساً يداعب الأجساد في تؤدة، ويقبل الخدود التي بدأت تتشقق كورودٍ حمراءَ، تغادر أكمامَها بعدما قبلتها شمسُ الصباحِ الذهبيةُ، وغازلتها قطراتُ الندى الصباحيةُ.

وصلت الحي بعد مرور نصف ساعة، فدلفت إلى البيت الذي تكتريه كمن يسابق الزمن، ثم رمت حقيبتها اليدوية الصغيرة على الأرض، وأزالت

ملابسها، وبعده ارتمت على فراشها منهوكة؛ كأنها تحمل عبء سنين طويلة من العمل الدؤوب والشاق.

لم تمضِ بضع دقائق، حتى قفزت من مكانها، فأخذت حقيبتها من الأرض، فتشت عن هاتفها، ثم انطلقت تبحث في قائمة الرسائل. بعد ثوان، اكتسحت وجهها ابتسامةٌ رقيقةٌ، ما جعلها تعود إلى التمدد على فراشها مجدداً، وقد وضعت الهاتف على الجهة اليسرى من صدرها، فتنهدت تنهيدة عميقة وطويلة؛ كأنها ترمي بعبء اليوم ومفاجأته.

تناول الأصدقاءُ غداءهم، فقام كل منهم ليغسل يديه، وبعده سادت لحظةُ صمتٍ هادئةٌ وطويلةٌ، ظل خلالها عمرُ يتثاءب بتثاقل، فيما كان أحمد يفتش في هاتفه كمن ينتظر اتصالاً أو رسالة. أما الآخر، فقد انشغل بغسل الأواني، وما أن انتهى منها حتى شرع في إعداد الشاي.

في هذه الأثناء، بدأت حركة الأطفال في الزقاق تفتر شيئاً فشيئاً، والصخب الذي كان يسوده طوال النهار لم يعد موجوداً، كأن الجميع دخل بيته كما تقصد الطيور أوكارها في كل مساء بارد بعد يوم مليء بالكد والجد.

في وسط هذا الهدوء، رن هاتف عمر، فأجاب بسرعة:

- آلو.. آلو، عمي محمد..

رد المتصل بصوتٍ غليظ:

- آلو، عمر.. كيف حالك؟ وصلت؟

- أنا بخير، لقد وصلت منذ الصباح.

- ولمَ لمْ تتصل بي؟

- كنت أنوي ذلك، إلا أني وجدت صديقاً طلب مني قضاء اليوم معه، لعلي أسترجع أنفاسي، وأزيل عني وعثاء السفر.. سأتصل بك صباح غد.

كان اليوم الذي وصل فيه الصديقان المدينة يوم أحد، لذلك كانت الشوارع والأزقة والمقاهي مكتظة. في هذا اليوم، كانت كل الأماكن العمومية ممتلئة بحشود غفيرة، وكل شخص يستغله حتى يرمي أعباء أسبوع كامل من العمل وراءه.

وضع توفيق الصينية فوق المائدة، فسكب ثلاث كؤوس، ثم فتح الحديث في موضوع عمر الذي لم يتممه، فقال:

- لقد تحدث لي أحمد عما حدث صباح اليوم في المحطة. لكن، لم أفهم كيف تفطنت لمكيدة السائق ومن معه؟

ابتسم ابتسامة المنتصر، وبخار الشاي يخرج من بين شفتيه، فرد بحماس شديد:

- نعم، لقد طلبا مني دفع مبلغ عن حقيبتي، لكنني رفضت ذلك..

يسأله باستغراب:

- ولمَ رفضتَ؟

- لأنني ركبت في نواحي مدينة مراكش، وأنت تعرف أن المسافة بينها وبين الدار البيضاء، لا تتعدى ساعتين ونصف الساعة. لذلك امتنعت عن الدفع، وصرخت في وجههما، فتوعدا أنهما سينتقمان مني.

يسترسل توفيق في السؤال، فيما ظل أحمد ينصت إليهما بانتباه بالغ:

- وما الذي كنت تنتظر منهم؟ إنهم لصوص في صورة أناس معتدلين؛ لأنهم لا يسرقونك مباشرة، ولكن بطريقة ملتوية.

حرك رأسه بطريقة دائرية، ثم عقب:

- لذلك كنت حريصاً على مراقبة حركتيهما. ولكي ينتقما مني، لم يوقظاني لما وصلنا حي سيدي معروف، حتى أدفع أجرَ سيارة أجرة صغيرة. هذا ما جرى لي.

ضحك أحمد ضحكاً ماكراً، ثم ردد:

- لعمري إنك ذكي يا عمر، لقد أبليت بلاءً حسناً.

ابتسم الآخران، فعاد الكل إلى احتساء كأسه، وقد ساد الصمتُ الغرفةَ مجدداً.

في هذه الأثناء، بدأ الليلُ يرخي سدوله، والنجوم تزينُ السماءَ، والبرد العليلُ يطارد النوافذَ. كان الشارعُ المقابل للزقاق فارغاً من المارة، والسكون يعصف بالنفوس، والظلام يكتسح الأرجاء زحفاً. استأذن عمر الصديقين فنام في السرير الثاني، فيما ظل أحمد يراسل فاطمة حتى بدأ النوم يملك عينيه، فاستلقى على سرير توفيق دون سابق إنذار، تاركاً الهاتف على صدره. أما الآخر، فقد أخرج الأغطية الموجودة في الأكياس البلاستيكية الكبيرة، فوضع واحداً فوق أحمد، وآخر غطى به عمرَ، فيما اكتفى هو بوضع فراش

على الأرض، ثم أطفأ المصباح، وعاد إلى فراشه طلباً للدفء. عمَّ الصمتُ والظلامُ المكان، فنام الجميعُ نوماً عميقاً.

بدأت الظلمةُ التي غطتِ الحيَّ كلَّهُ تتبدد، شيئاً فشيئاً، في حضور ضوء الصباح الخجول الذي بدأ يطلُّ من الأفقِ، والنجوم تندثر وتمّحي لتترك السماء عاطلاً من زينتها، والطيور تزقزق وتتغنى بأصوات بهيجة عذبة؛ كأنها تستقبل الصباحَ الباردَ في الأيامِ الأولى من شهر آذار. ففي استقبال الصباح، بدايةٌ ليوم جديد، يعقبها بحثٌ دؤوب عن لقمة العيش في الكون الفسيح. والورود استيقظت هي الأخرى مذعورةً من قبلات الندى التي تثمطُ وريقاتها بشبقية لا مثيل لها، فتتفتح من أكمامها شيئاً فشيئاً، وتملأ المكانَ طيباً، وتضفي عليه سحراً من الجمال يخلب الألباب، ويثري الوجدان، وينشر الحياة في قلب الناظر العاشق من قريب.

حين تلقي نظرة على الأشجار المتراصة على جنبات الشارع ووسط الحديقة، تراها تتحرك في تؤدة، وفي كل تحرك، ترمي ما بقي عالقاً بأوراقها من قبلات الحبّ الندية على وجه البسيطة المعشوشبة، فيغدو للصباح طعمٌ خاص لا يُلقَّاهُ إلا ذو حظٍّ عظيمٍ، أو عاشقٌ للوحة الصباحية التي لا تعرب عن جمالها الجذاب، ورونقها البهي إلا للمبكّرين.

شرع صوت الحافلات والسيارات يتعالى منذ طلوع ضوء النهار، والناس يخرجون جماعات وفرادى. في الوهلة الأولى، لا يكون في الشارع إلا بعض القطط والكلاب التي تجوبه ذهاباً وجيئة، لكن سرعان ما يمتلئ حينما

يستيقظ الجميعُ بحثاً عن لقمة العيش، كما تفعلُ باقي الكائناتِ الحيةِ باستثناء الخفافيش الليلية.

لما ترمي ببصرك إلى الأفق البعيد، تلمحُ الشمسَ الخجولةَ آتيةً بخطى وئيدة، متبخترةً في كبد السماء، ومعلنةً انتصارَها على سكون الليل وسدفته، ومبددةً كآبته التي تجثم على الكون الفسيح بكائناته المتعددة.

لم تمضِ بضع دقائق حتى ازدادتِ الشمسُ بروزاً وإشعاعاً، وأضاءت الحي، فانطلقت تتسلل خفية من شبابيك النوافذ، معلنة بداية الجد والكد.. لقد كانت، ولا تزال، تسدي خدمةً كبيرةً للبشرية قلّما أُنتبه إليها. فإلى جانب فوائدها المتعددة الشائعة بين الأناسي، نجدُ لها فائدةَ إيقاظِ النائمين الغارقين في سباتهم، إذ أنها بمجرد ما تقتحم شباك النافذة، غازيةً الغُرفَ الموجودةَ في الطوابق العليا، والمقابلة للمشرق، تتسمرُ في الأجساد العاريةِ، وكلما ازداد ثباتها كلما أحس الجسد حرارةً تدفعه إلى التقلب في مضجعه مرات عدة، محاولا الفرارَ منها تارةً، وهذا في فصل الصيف، ومنشرحاً لها تارةً أخرى، وهذا في فصل الشتاء. لكن، وفي كلتا الحالتين، يعلنُ الجسدُ استسلامه لسلطانها العتيد، ومن ثم يستيقظ المرء مستقبلاً يومه الجديد، ومستعيداً حركته وحيويته بعدما كان ساكناً هادئاً في غياهب الليل.

في ظل هذه الأجواء الصباحية، استيقظ أحمد متثائباً، رفع بصره صوب الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى السابعة صباحاً، ثم نظر إلى توفيق وهو

مستلق على الأرض، وإلى عمر الذي كان مكوماً في غطائه، رافعاً ركبتيه إلى بطنه، محاولاً إخفاء رأسه بينهما كأنه جنين قابع في قرار مكين.

لَأْيًا غادر سريره، وانطلق يمشي الهوينى تفادياً لإيقاظهما، فتوجه صوب النافذة التي تطل على الزقاق، يجيل بصره، ويرصد الحركة المكوكية للسكان وهم يغادرون البيوت رجالاً ونساء وأطفالاً. وعلى حين غرة، ألفى نفسهُ شارداً عن الزقاق وأناسه، عائداً إلى البلدة حيث يكون السكان، في هذه اللحظة، مجتمعين على مائدة يتناولون فطورهم، ثم سرعان ما ينتشرون في الأرض، ولكل منهم حاجةٌ يسعى إليها...

ارتدَّ نظره إلى الغرفة، توجه إلى الحمام حيث ظل يغمر وجهه بالماء، وينظر إليه في المرآة، ثم عاد إلى الغرفة، فصوب نظره إلى الساعة، وبدأ يوقظ الآخريْن بتؤدة.

استيقظ الآخران بمشقة، فخرج توفيق لإحضار الخبز من الدكان الموجود في رأس الزقاق، فيما انشغل أحمد بإعداد الشاي، وعمر ظل مسنداً رأسه إلى الحائط، محاولاً ربط الاتصال بعمه إلى أن فاجأه أحمد:

- ألم يجبك؟

رد بملامحَ تشي بالملل الذي يعتمل في غياهب نفسه:

- حاولت الاتصال به كثيراً، لكنه لم يرد بعد.

- ها هو توفيق قد عاد، نفطر وأعد الاتصال به.

دلف إلى الغرفة والخبز في يديه، فاجتمعوا حول المائدة، سكب أحمد الشاي، وقطع الآخرُ الخبزَ إلى قطع صغيرة، ثم وزعه فوق المائدة وطلب منهما مباشرةَ الأكل.

امتلأت الشوارع بالناس الذين يجوبونها وهم يمشون حثيثاً، وأصواتهم تتعالى، وكلما مر الوقت ازداد المكان صخباً وضجيجاً. في جنبات الشارع، يقف أناس مشكلين حلقة، منتظرين قدوم الحافلة، لكن ما أن تبتعد عنهم بضع خطوات حتى تلمح أفراداً هنا وهناك متسمرين في مكانهم، حيث ينتظرون مرور ضحية قدامهم لينقضوا عليها.

أنهى الأصدقاء فطورهم، فارتدى كل منهم ملابسه، ثم غادروا الغرفة. كان توفيق يرتدي قميصاً أزرق وسروالاً أسود، وحذاءً لا يألو جهداً في تلميعه قبل أن يغادر، فيما ظل الآخران بلباسهما نفسه.

كان عمرُ يحمل حقيبته، يمشي خلف توفيق وأحمد في الزقاق، حيث كانت العيون التي رصدتهما وهما يدخلان رفقة توفيق، هي نفسها التي ترصدهما في الصباح، ولم يتخلصا منها حتى بلغا الشارع الرئيس.

أخرج هاتفه من جيبه، وبحث عن رسالة ما فلم يجد شيئاً، إذ بدأت الأفكار تتكالب عليه، فخمن أن فاطمة لم تستيقظ بعد، وإلا كانت قد تركت له رسالة، تخبره فيها عن مكان اللقاء. وما أن رفع رأسه حتى مثلت أمامه

الحافلة رقم **97** ممتلئة عن آخرها، فصعد إليها توفيق بعدما ودع عمرَ، وسلم مفتاح البيت لأحمد الذي سيظل قاطناً معه حتى حين.

بقي عمر يلتفت يميناً وشمالاً وأمارات الحيرة تطفو على وجهه.. كان ينتظر عمه الذي تأخر، فيما ظلَّ الآخرُ مركّزاً بصره في الحافلة التي تبتعد عنهما شيئاً فشيئاً، إلى أن اختفت كأنها لم تكن واقفة أمامهما قبل دقائق، وفجأة التفت جهة عمر ليخاطبه قائلاً:

- هل أنت مقتنع بالعمل في البناء؟

- أنا مضطر.

- لست مضطراً؛ لأنك تحمل شهادة، ومجال البناء لم يكن لأمثالك..

- لقد بحثت عن عمل يليق بي فلم أجد، إذاً لم يبقَ لي خيار.

تنهد طويلاً، ثم أردف بصوتٍ شجي:

- وأنت، قل لي: فيم ستعمل؟

خيمت غيمةُ حزنٍ على وجهه قبل أن يرد وهو يتأفف:

- في الحقيقة، لا أدري..

- ولمَ لا تعملُ مع توفيق في معمل الخياطة؟

- فليكن ذلك، لكن حتى أستنفد أوراقي.

استغرب هذا الكلام، فسأله بسرعة:

- عن أي أوراق تتحدث؟

لم يحر جواباً، وإنما اكتفى بالقول:

- أعد الاتصال بعمك الآن، واترك هذا الأمر إلى لقاء آخر.

كان يلامس غموضاً في شخص أحمد، لم يعرف مصدره بعد، أو يستطع التكهن فيما إذا كان يتعمد ذلك أم أنه جزءٌ من طبعه. فظل متوجساً ومنتظراً قدوم عمه، فيما جلس أحمد على الرصيف، فانطلق يفتش، مجدداً، في هاتفه، والغضب يأخذ منه كل مأخذ. لقد كان يتساءل عن سبب غيابها، وازدادت حيرته لما وجد هاتفها مغلقاً، فحاول الاتصال مرات عديدة، وقد جاب المكان ذهاباً وإياباً. لم تخف هذه الحيرةُ والاضطرابُ اللذانِ يتخبط فيهما أحمدُ عن عمر، لكن هذا الأخير لم يكن قادراً على مفاتحته في الموضوع لئلا يضيف إلى محنته محنةً أخرى.

عاود الاتصال دون جدوى، وكلما مضت دقيقة بدت ملامحه أكثر سواداً، ما ينم عن حرب نفسية لم يستطِع كظمها، فلم يكن من عمرَ إلا أن اقترب منه فجلس جانبه، ثم انطلق يواسيه:

- اصبر يا صديقي، إن المدينة صعبةٌ وقاسيةٌ، وأناسها ليسوا كلُّهم ممن يطمئن إليه المرءُ.

أطبق لحظة بعدما خفض رأسه إلى الأسفل، ثم أردف بالنبرة نفسها:

- لا تقلق بخصوص العمل؛ لأنني سأتحدث بشأنك مع عمي..

تصنع ابتسامةَ شاحبةً، وربت على كتفه، ثم عقب:

- لقد اطمأنت نفسي لك منذ أول حديث بيننا، والآن أبنت عن الصداقة يا عمرُ.

داهمت سحابةُ صمتٍ سماءهما، فمد كل منهما بصره إلى الأفق. وبينما هما مغتربان عن المكان، فاجأهما صوتُ منبه سيارة فاخرة مثلتْ أمامهما، فقفز من مكانه مخاطباً أحمد، ومتجهاً نحو الرجل الذي ترجل بقامته الطويلة، ورأسه الأصلع، ووجهه العريض، حيث عيناه تشعان حمرة كعين ذئب الفلاة في الليل الدامس. كانت ملامحه قريبة من ملامح عمر، لكن مع اختلافات طفيفة بينهما.. يرتدي بذلة عصرية رسمية فوق قميص أبيض اللون، ورباطَ عنق أزرقَ، وحذاءً أسودَ مُلمّعاً.

تقدم نحوهما، فوثب عمر على يده اليمنى يقبلها بحرارة، فيما كان أحمد يبتسم للرجل ابتسامة مليئة بالتودد والتقدير. ثم صافح أحمد، وعاد إلى سيارته، وما أن همَّ بالرحيل حتى أسرع عمرُ صوبه، فعانقه عناقاً طويلاً قبل أن يقول:

- شكراً على حسن الضيافة، سأشتاق إليك كثيراً.

ابتسم ثم عقب:

- لا عليك يا عمر، فنحن نقيم في المدينة نفسها، كما أننا سنلتقي في نهاية كل أسبوع.

- أكيد سنلتقي، إلى اللقاء صديقي.

ظل أحمد بضع دقائق متسمراً في مكانه لا يحرك ساكناً، كان ينظر إلى السيارة وهي تلتهم الإسفلت، مبتعدة عنه شيئاً فشيئاً حتى اختفت. تلفت يميناً وشمالاً كأنه يبحث عن وجهة يوليها وجهه. وعلى حين غرة، لمعت في ذهنه فكرة الذهاب إلى المقهى الذي تعمل فيه فاطمة، ظناً منه أنه سيراها هناك، ويستفسرها عن عدم اتصالها به كما كان مقرراً بينهما، وسبب إغلاق هاتفها.

توجه إلى الجهة الأخرى من الشارع، فأشار إلى سيارة أجرة صغيرة، استقلَّها وقد أخذت الشكوك والوساوس تعتمل في نفسه. ظل طوال الطريق مسنداً رأسه على زجاج النافذة، شارداً أمام الوجوه الواجمة، والأزقة المتعددة، ومستغرباً من كثرة الناس في المدينة.. كان يستغرب هذه السيارات الكثيرة التي يكاد بعضها يصطدم بالبعض الآخر، ولسان حاله يقول:

- "هل هذا الترف في ركوب السيارات الفارهة، وارتداء الألبسة العصرية الباهظة الثمن، دليلٌ على ثراء المدينة؟ لمَ لا نتوفر في البلدة إلا على سيارة أو اثنتين لنقل البهائم والبضاعة؟".

وفجأة، عاد ليتذكر صديقه عمرَ، وما جرى له في صباح الأمس، ونظراته الأولى لفاطمة. كانت عيونهما متركزة في بعضها لثوانٍ، إلى أن أحس ارتعاشة ساخنة تسري في جسده، فتململ كما يتململ الغصن المنفرد أمام هبات الرياح القاسية...

5

وصل المقهى، فحاول طرد تلك الهواجس التي كانت تجول في نفسه، ثم دخل وعيناه تنظران إلى كل الجوانب التي كانت مكتظة عن آخرها. لقد أجال بصره طويلاً وهو متسمرٌ عند الباب، فكان وضعه كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، أو خاتم عريق وسط الكثبان الرملية.

مضت دقيقتان دون أن يبرح مكانه، ولم تصدر منه أيةُ حركة سوى النظر هنا وهناك، منتظراً بزوغ ضوء ينير ظلمته الشديدة، لكنه لم يظهر ما لم تظهر فاطمة. فأخذ نفساً عميقاً، ثم تحرك صوب الشاب الذي يعد المشروبات للزبائن، وقد تردد كثيراً في سؤاله عنها؛ لأنه التقى بها أمس، ولم تكن بينهما علاقة تشفع له في السؤال، ولا قرابة تضفي مشروعية عليه. بيد أنه لم يستطع الانتظار طويلاً، فبادره بالكلام دون تروٍ:

- لو سمحت، أريد أن أسألك.

أصيب الآخر بالاستغراب، فتصنع ابتسامة، ثم قال:

- مرحباً سيدي، فيمَ يمكنني خدمتك؟

- أود أن أسأل عن فاطمة، الفتاة التي تعمل نادلة هنا..

- نعم، ولكنها لم تأتِ اليوم.

اقترب منه متوسلاً:

- وما السبب؟

رفع كتفيه وهو لا يحير جواباً، فأصيب أحمد بخيبة أمل كبيرة، وعاودت الوساوس والهواجس الظهور مجدداً. فلمعت في ذهنه فكرة الانتظار حتى المساء لعلّها تأتي. لذلك طلب قهوةً سوداءَ وسيجارةً.

كان المنظر في الخارج بهيجاً، وقد أضفت عليه قطراتُ المطرِ الباردةُ رونقاً وجمالاً؛ فالشارعُ أُفرغ من المارة الذين يركضون فراراً من التبلل، والسيارات والحافلات تمشي وئيدة؛ لأن قطرات المطر سقطت على الزجاج الأمامي، وهذا ما جعل الرؤية ضبابية وشبه متعذرة. أما الإسفلت فإنه قد ازداد سواداً.

وصل عمر بيت عمه، فاستقبلته زوجته وأبناؤه استقبالاً مهيباً، مرحبين به، ومبتسمين في وجهه. كان البيت كبيراً يضم أربع حجرات واسعة، ومطبخاً أكبر من الغرفة التي يكتريها توفيق، ومكاناً للضيافة يجذب القلوب والنفوس، ويثري الوجدان، وجدرانه مزركشة بالنقوش التقليدية، وسقفه مزين بالجبص، وفي وسطه عُلقت ثريا أخطبوطية الشكل. أما الفراش، فإنه يشكل مشهداً تقليدياً عريقاً، وصورةً تطلع الناظرَ إليه على ثراء أصحابه، ورفعة مكانتهم الاجتماعية.

بعدما استعاد أنفاسه، وأحضرت زوجة عمه الشاي والحلوى، أمطره أبناء عمه الثلاثة بوابل من الأسئلة، إذ سألوه عن كل كبيرة وصغيرة في البلدة: البشر، والشجر، والحجر، والأجواء في فصل الشتاء، ثم عبروا له عن رغبتهم

في زيارتها في فصل الربيع المقبل، حتى يحضروا عرسه، ويجددوا صلتهم بالبلدة وأناسها وثقافتها.

اكتفى بالإجابة عن الأسئلة دون أن تفتر الابتسامة في وجهه، فيما ظل عمه في حجرة مجاورة يصلي. كانت زوجته في المطبخ رفقة الخادمة؛ إذ أنها لا تدخله إلا ساعة مجيء ضيف عزيز. مضت لحظات قليلة، فألفى نفسه في أجواء عائلية ملؤها الحنان والاهتمام من قبل زوجة عمه وأبنائها، فانشرح صدره وعلت وجهه ابتسامة عميقة، لكن سرعان ما خبا وميضها بعدما تذكر أحمد، والأوقات القليلة التي قضاها معه. شرد بضع دقائق، حتى فاجأه صوت عمه الجهوري:

- الغداء جاهز يا ابن أخي، تفضل إلى قاعة الأكل.

ابتسم في وجهه، ثم سار وراءه متجهين حيث الجميع ملتف حول المائدة، ينتظر قدومهما، والضحكات تتعالى مخترقة سكون المكان وهدوءه.

بدأت الشمسُ تحمل أشلاءها في حضرة المساء، متجهة شطر المغرب بتثاقل. كانت الأجواء المسائية أكثر حركةً، والبرد سيد الموقف، فالجميع يرتدي معاطفَ صوفيةً وجلديةً، رجالاً ونساءً، ويمشون مكومين من شدة البرد. وكلما اشتد البرد، ترى الجالسين في المقهى متزاحمين، كأنهم يستمدون الدفء من بعضهم البعض، فيما ظل أحمد في ركن يحتسي قهوته بجرعات ثقيلة، ويرتشف سيجارته في انتظار التي لم تأتِ، إلى أن فاجأه النادلُ الذي كانَ يتدثرُ سترةً بيضاءَ، وشعاراً عبارةً عن قميص أسود اللونِ، مكفوف

اليدين، وسروالاً وحذاءً أسودين، لقد كانتْ عيناه حمراوين غارقتين في جمجمته، وأسنانه متآكلة سقط أكثرها. حين تنظر إليه من قريب تراه نحيفاً كمن بلغ من العمر عتيا.

مثلَ أمامه، وبصوت شجي نطق:

- ادفع لي ثمنَ القهوة لو سمحت؛ لأنني سأنصرف.

تحسس جيبه بيده اليمنى، فأخرج عشرة دراهم ووضعها في كف النادل، فقام هذا الأخير بإرجاع درهمين، قائلاً:

- تفضل..

امتنع عن أخذهما، فاكتفى بالقول:

- خذهما.

وقبل أن ينصرف إلى حال سبيله، بادره بالسؤال:

- من فضلك، هل تعرف مكان سكنى فاطمة؟

حاول التبرم والتلكؤَ في الرد، بيد أنه فاجأه قائلاً:

- إنها ابنة عمي، ولقد جئت من البلدة لرؤيتها.

فرد النادل بتمتمة:

- حي الياسمين، الزنقة **9**، رقم الدار **20**.

ابتسم في وجهه، فلم يحس حتى أخرج خمسة دراهم من جيبه، ووضعها في يده تعبيراً عن شكره وامتنانه.

حاول العثور على طريق وسط الجموع الغفيرة، وبالكاد استطاع مغادرة المكان، ليجد نفسه في الشارع يتنفس الصعداء، فلوح إلى سيارة أجرة، ثم خاطب السائق بسرعة:

- حي الياسمين، من فضلك..

أبدى علامات الاستغراب، ثم عقب متهكماً:

- تقصد حي الصفيح؟

ظهر الغضب على وجهه، فرد بحدة:

- هل تسخر مني؟ قلت لك حي...

قاطعه، وهذه المرة بدت عليه ملامحُ الجد، وبهدوء قال:

- أتحدث معك بجدية؛ لأن هذا الحي غير موجود.

أثارت هذه الكلمات حفيظته، وبينما همّ بمغادرة السيارة، توعد النادلَ، قائلاً:

- لقد كذب علي ذلك العجوز الهرم..

فترجل السيارة غاضباً، وما أن خطا خطوتين حتى سمع منبهها الصوتيَّ، فالتفت نحو السائق الذي لوح إليه بيده، مشيراً إليه بالمجيء، فسأله بملامح متجهمة:

- ماذا؟

ابتسم ابتسامة استرضاء واعتذار، ثم رد:

- معذرة يا ولدي، اصعد فإنني تذكرت هذا الحي المقيت.

صعد وجلس في المقعد الأمامي وقد انفرجت ملامحه، فظل برهة صامتاً حتى بادر السائقَ، بالسؤال:

- لمَ قلتَ حيا مقيتا؟

مرر يده على لحيته، ثم رمقه بسرعة، فعقب:

- منذ مدة يا ولدي لم أدخل ذلك الحي، ولم آخذ أحداً إلى هناك، ولكن بدا لي أنك غريب عن المدينة، وهذا ما جعلني أقرر أخذك إليه.

- ولم لا تذهب إليه؟ يبدو من اسمه أنه حيٌّ راقٍ..

- كان يجب أن يسموه حي..

توقف عن الكلام فجأة، فتدخل أحمد متسائلاً مستفهماً:

- حيٌّ ماذا؟

- حيّ المواخير..

تلفظ بها السائق كأنه يحمل جمرة في لسانه، فأراد أن يمجَّها خارجاً، فيما وضع الآخر كفه على خده الأيمن، وبدأت التكهنات تتكاثر عليه. لقد كان يقول في قرارة نفسه:

- "حي المواخير.. إذاً هو حي فقير مليء بالمتسكعين، وبائعات الهوى. لكن، أهي بائعة...؟".

كان يحاول منذ بضع دقائق طرد هذا السؤال من ذهنه، لكنه لم يستطع، ما دام المكان ماخوراً.

بلغت السيارة الحي حيث الشارع ضيق، ومليء بالمتسكعين الذين يجلسون في الجنبات، وعلى الرصيف جماعات وفرادى، بوجوه شاحبة، يرتدون أطماراً بالية، وينتعلون نعالاً متداعية. والعجائز متفرقون هنا وهناك، إذ حيثما أجال بصره يراهم مادين أيديهم.

ترجل السيارة بتثاقل، فشرع يستوقف المارة، ويسألهم عن الزنقة **9** وسط منازل متداعية، لونها بني باهت، وأبوابها متشابهة. وبعد بضع دقائق، بلغ الزقاق المقصود، فانطلق يمشي وسطه بخطوات وئيدة، حيث يجول ببصره هنا وهناك، وكلما توغل فيه ازداد ظلمة، وأزكمت أنفَهُ رائحةُ الجدرانِ التي مُلِئَتْ سواداً. وأمام كل بيت يجد أكواماً من الأزبال المتناثرة، فاضطرته إلى أن يقفز عليها كلما اعترضت طريقه حتى بلغ البيت. طرق الباب المهترئ طرقات خفيفة، ولم تمضِ ثوانٍ معدودة حتى فاجأه صوت خفيض:

- "مائة درهم".

استغرب من الصوت الذي لا يظهر صاحبه، فأعاد طرق الباب فَفُتحَ على مصراعيه، وهذا ما بعث الاضطراب في نفسه. وما أن همَّ بالعودة حتى بطشت به يدٌ خفيةٌ، أمسكته من قميصه وأدخلته بسرعة. لقد وجد المكان مظلماً حالكاً، ورائحته نتنة تزكم الأنوف، ووسط هذه العتمة التي يخطو فيها خطواتٍ عشوائية، رمق أشباحاً تمر أمامه مر السحاب، ما جعله يقف متسمراً في مكانه إلى أن سمع صوتاً يناديه بحشرجة:

- تعال أيها الشاب، أنا هنا.

كان صوت أنثى، لذلك تنفس الصعداء، ثم حاول تفحص البيت دون أن يرى شخصاً ولا أثاثاً فيه، فانطلق يناجي نفسه برهة:

- "هذا مكان مسكون، وربما تسكنه جن تتربص بي الدوائر..".

وفجأة، رمق بصيص ضوء يشع من كوة في غرفة صغيرة ضيقة كزنزانة في بطن الأرض، قطع تخمينه. تقدم بخطوات وئيدة، فدفع الباب بتؤدة، ليجد امرأة عجوزاً تجلس على كرسي خشبي متآكل، يصدر بين الفينة والأخرى، صوتاً مزعجاً، وأمامها طاولة مستطيلة الشكل، ذات أرجل أربع صغيرة، وضع فوقها كوبُ شاي وسجائرُ، وولاعةٌ حمراءُ اللون، ودفترٌ صغيرٌ وسطه قلمٌ جافٌ أزرقُ. كانت ترتدي قميصاً فضفاضاً، ووجهها متجعد بأخاديد متباينة الأشكال، وأنفها صغير، وفمها واسع مهترئ الأسنان، وشعرها مخضب بالأبيض، ويداها ترتعدان كلما أمسكت بهما شيئاً.

ألفى أنها لم تكن وحدها في المكان، وإنما كان ثم أشخاصٌ ظهروا فجأة بعدما أُشعل الضوء. كانت الغرفة تضم فتاتين لهما شعر أصفر، وعينان سوداوان واسعتان، وشفتان محمرتان مكتنزتان ومتوهجتان. كانتا ترتديان ثوباً شفافاً يعرب عن نتوءات أنوثتهما، وسراويل رقيقة ملتصقة بجسديهما لم يستطع تميزهما عن جلديهما.

كان المشهد غرائبياً جذاباً؛ لأن الظلمة تبددت، والأشباح تجسدت في أدميتها، لهذا أخذ زاوية في الغرفة الضيقة، فسأل العجوز على استحياء، وبعفوية:

- هل تسكن فاطمة هنا؟

فتحتْ فاها الذي بدا خراباً تنفر العيون من رؤيته، والنفوس من المكوث به، فردتْ وهي تضحكُ:

- هن فاطمات، انتظر بضع دقائق فحسب، وبعده اختر فاطمتك.

لم يحر جواباً، بل اكتفى بالنظر إلى الفتاتين اللتين تنظران إليه نظرات متوهجة، ومليئة بشبقية جموح، فتتحركان حركات عنجهية أمطرت لعابه، وضربت أعشار قلبه الشجي. وعلى حين غرة، سمع أنيناً خافتاً قد صدر من إحدى الغرف، ولم تمضِ دقيقة حتى دلف إلى الغرفة رجلٌ طويلُ القامةِ، عريضُ المنكبين، والعرق يتفصد من وجهه، كان يمسك سرواله الأزرق بيده اليسرى، ويبحث عن حزام يشد به خصره المدور. ثم حدق في أحمد دون أن ينبس ببنت شفة، وإنما ظل واقفاً في مكانه.

بضع ثوانٍ، وظهرت فتاة عشرينية من الغرفة التي خرج منها، بشعر متهدل، وعينين جاحظتين، وشفتين محمرتين. كان نهداها ناتئين مكورين يكادان يخترقان الثوب القصير الشفاف، وبطنها مستوٍ، وساقاها عاريتين ممشوقتين، فأقبلت بخطوات وئيدة وقدماها حافيتان، لتبتسم في وجه الحاضرين.

جلست، ثم أخرجت من حقيبتها الصغيرة منديلاً ورديا مررته على جبينها بتثاقل، ثم على صدرها وهي تحدق في أحمد.

تلتها فتاة أخرى، سوداء البشرة، بدينة الجسد، إذ غادرت غرفة صغيرة، وهي تردد بصوت مرتفع:

- "إنك وحشٌ ضارٍ.. أغلق معك الباب".

كان يتبعها وهو خائف يترقب، ورجلاه القصيرتان ترتعدان، أجال بصره في الجالسين، ثم أخذ ملابسه وارتداها بسرعة، وأخرج ورقة نقدية قيمتها مائة درهم، ووضعها في كف العجوز. ظل أحمد مشدوها أمام هذه اللوحة البشرية المضمرة؛ لأنه لم يكن يعرف قانونَ المواخير، ولا الأجواءَ التي تسودها حتى هذا اليوم، لذلك سرعان ما بدتْ له الوجوهُ ممسوخةً، ورائحة الغرف تضفي على المكان كآبة، فسأل نفسه كثيراً: فيمَ إن كان هؤلاء المترددون على هذا المكان يغادرونه وهم سعداءُ، أم أن وراء سعادتهم بركاناً من الندم، وجلد الذات، لا يفصحون عنه إلا بعد الاختلاء بأنفسهم؟ وما أن همَّ بالانصراف حتى سمعَ صوت آنية ما تسقط على الأرض، فعلم أن الصوت آتٍ من المطبخ، فالتفت جهته. وبعد ثوانٍ، خرج منه رجل خمسيني وهو يتحسس جيبه، وابتسامةٌ كبيرةٌ تملأ وجهه. لقد بدا كمنتصر غادر هيجاءَ دون خسائرَ فادحةٍ، فرمى ورقة نقدية قيمتها مائتا درهم فوق الطاولة، مخاطباً العجوز التي انفرجت ملامحها:

- هذه بضاعةٌ جديدةٌ.

- نعم، ولكن الجديد يتطلب زيادة على المعتاد.

ابتسم ابتسامةً ماكرةً، وغادر المنزل مبدياً علامات السعادة، وتاركاً وراءه حرباً ضروساً، كانت قد نشبت في نفس أحمد منذ دلف إلى المكان. وها هي ذي ساعة تمضي بطيئة قبل أن تظهر فاطمة مبسوطة الوجه، ومظهرة نصف نهديها اللذين يغطيهما ثوب شفاف مُزق من أطرافه. كانت تتجه نحو الغرفة بخطواتٍ ثقيلة، فيما كان أحمد والآخرون يتبادلون نظراتٍ متضاربةً دون أن يتفطن أحدهم للرسائل التي تحملها إليه.

كانتْ شبهَ عارية؛ لأن لباسها الشفاف لم يخفِ الكثيرَ من جسدها إلا نصف النهدين، وخصرها البدين. وفجأة، تلتقي عيناها بعيني أحمد الذي قفز من مكانه كمن لدغته حية في بيداءَ قاحلةٍ، فتوجه نحوها ويداه ترتعشان كأنه ارتكب خطيئة شنعاء، وما أن اقترب منها بحيث لا تفصل بينهما إلا مسافة شبرين حتى صرخ في وجهها صرخة، جعلت الجميع يقفز من موضعه، واضعين كفَّ أيديهم فوق أفواههم:

- ما هذا أيتها اللعينة؟

- أحمد، انتظر حتى أشرح لك.

عقب بصوت ممزوج بالغضب والتهكم:

- ما الذي ستشرحينه لي يا بائعة الهوى؟ أهذا هو عملك الخفي أيتها اللعينة؟

- انتظر حتى تعرف ظروفي ال...

قاطعها بصفعة شهق لها الجالسون، حتى ظهرت بصمات يده على وجهها محمرةً، فسقطت أرضاً دون حراكٍ، ليرتفع الصخب، وتتعالى الأصوات إلى أن كاد بعضهم يضربه، إلا أنه غادر المكان سريعاً، بنفسية محطمة، وأحاسيس مضطربة بين الغضب الجامح، والخوف من فقدانها إلى الأبد. لقد كان يسير في الزقاق بخطوات سريعة، وما أن بلغ الشارع حتى طلب سيارة أجرة فامتطاها، ليغادر الحيّ وأمارات الغضب تكتسح وجهه، متوجهاً تلقاء البيت.

وصل الحي الذي يسكنه، نزل من السيارة ثم دخل الزقاق دون أن يعير اهتماماً للذين يحدقون فيه، أو يحس المسافة التي تفصله عن البيت. وبسرعة، فتح الباب ودلف، ثم جلس على سرير توفيق يسترجع الأحداث التي وقعت قبل ساعة. كان وجهه يتفصد عرقاً، ويداه ما زالتا ترتعشان وتضطربان، فكر بضع ثوان، ثم سرعان ما أزال حذاءه، وتمدد على السرير، ودمعةٌ ساخنةٌ أسيرةٌ قدْ أُفرج عنها أخيرا، لتنهمرَ على خده.

دقائقُ قليلةٌ، ودلف توفيق إلى الغرفة، منهكاً بعد يوم شاق من العمل في المعمل، فنظر إليه طويلاً، إذ لفت نظره الشكل الذي يبدو عليه أحمد، كان يراه مقوساً، وعلى ظهره عرقٌ أبى إلا أن يظهر مخترقاً ثوب قميصه.

لم يستطِع إعداد العشاء هذه الليلة، وإنما اكتفى بإزالة ملابسه، ثم تمدد على السرير الآخر دون أن تصدر عنه حركة. كانا قد قضيا يوماً متعباً

وشاقاً، ولعلّ هذا ما أنهك جسديهما، ودفع بهما إلى النوم دون أن يتبادلا أطراف الحديث.

سرعان ما خيم الظلامُ على الأرجاء؛ لأن الليلَ أرخى سدوله، والناظر إلى الشارع يجده شاغراً إلا من الأشباح الليلية التي تقبع في الظلمة، وبعض القطط والكلاب البشرية التي ظلت طوال النهار تتحين الفرصة حتى يسود الظلام، لتبحث عن فريسة سهلة تفترسها خلف الأشجار، وفي الجنبات الفارغة، وعلى الرصيف تارةً، والبنايات تارةً أخرى.

في هذه الأجواء الليلية، بدأت الأشجار في الشارع تتحرك بفعل هبات البرد القارسة، لكن الزقاق بدا هادئاً كأن لا أحد يقطنه، لذلك ساد السكون في البيوت، ونام الجميع في صمت، فيما كان أحمد ما يزال يتقلب في مضجعه، يميناً وشمالاً، حتى استسلم لسلطان النوم أخيراً، تاركاً وراءه أحداثَ يوم ثقيل مبعثرةً في سماء الماضي...

****

6

كان الصباح بهيجاً؛ والشمس ساطعةً رغم برودة حرارتها، والطيور تقف على أعتاب النوافذ كأنها تنتظر إذناً بالدخول، أو تحمل بشارة للنائمين المتقلبين في المضاجع، والأجواء في الزقاق صاخبة، وحين تطل من النافذة حيث ينام الصديقان، لا تكاد ترى إلا جمعاً غفيراً من الناس يصرخون ويشتبكون بالأيادي.

إنهم في خصام يخوضه زوجان، وأهلهما الذين لم يستطيعوا الوصول إلى نقطة اتفاق بين الزوجين؛ فقد كانت الزوجة تصرخ ملء حنجرتها وتلطم وجهها:

- يا جبان، طلقني أيها المعتوه..

والزوج يحاول منعها من الصراخ، وبغضب يعقب:

- سأريك المعتوه من هو أيتها الفاسدة..

- أنت لست رجلاً، وما أنت إلا جبان ثقيل الظل..

كلما صرخت ازداد وجهه تجهماً، وانطلقت يده اليسرى تجرها من عنقها، واليد الأخرى تنهال على وجهها بالضربات المتتالية. لم يكن هذا الصراخ ليترك أحداً نائماً، لذلك استيقظ أحمد مذعوراً، فنظر من النافذة، بيد أنه، وبعدما أجهد نفسه في فتح عينيه، لم يكد يميز المتشاجرين عمن يفض النزاع.

تعالت الأصوات فاختلط بعضها ببعض، وتشابكت الأيدي، واحمرت العيون، ووجمت الوجوه إلى أن تفاجأ أحمد لما رمق شاباً طويلَ القامة، عريض المنكبين، بدين البنية، وقد أخفى مديةً كبيرة في كم يده الشمال، قاصداً الزوج بخطوات وئيدة، ودون أن يلتفت.

ظل مركّزاً بصره في حركات هذا الشاب الذي لم تعد تفصله عن الآخر إلا بضع خطوات، فاقترب من الجمع، ثم حاول تنحيتهم يميناً وشمالاً فاتحاً الطريق أمامه. وبعد ثوانٍ قليلة، كان وسط الشجار حيث الجيرانُ وسكانُ الزقاقِ كلُّهم محيطون بهم، مشكلين دائرة حولهم. وضع يده اليمنى على كتف الرجل، فالتفت هذا الأخير وقد اغرورقت عيناه، وكادتا تخرجان من جمجمته، فصرخ في وجهه شاتماً:

- أيها الحمار، تضرب أختي، والله إنني سأجعلك تتذوق الألم.

رد عليه الزوج ولعابه يتطاير من شدقيه كشرارة النار في هيجاء حامية الوطيس:

- جئت أيها المعربد.. فلتذهبْ إلى الجحيمِ وأختك معك.

زادت هذه الشتيمةُ من تأجيج نار الغضب في نفس الشاب، فاستجمع قبضة يده حتى تكورت، ثم ضربه بها فسقط أرضاً. تسربت قطرات دم من أنفه وفمه محاولاً النهوض دون أن يفلح في ذلك، لكن لسانه لم يفتر عن الشتيمة والتقريع بكلمات نابية، جعلت بعض النسوة يضعن كف أيديهن على أذنيهن وهن يتوارين من الجمع من سوء ما سمعنه هذا الصباح.

ثم أخرج الشاب مديتَهُ، ونزل بها بقوة على كتف الزوج اليمنى فتهدلت كغصن شجرة منفرد، كسرته قسوة الرياح العاتية. صرخ صرخة مدوية تردد رجعها في الزقاق مرتين، فحاول ثلة من الحاضرين إمساك الشاب الذي رفع يده مجدداً استعداداً للفتك به، غير أن الناس تدخلوا لإزالة المدية من يده، فيما تدخل أخو الزوج، فجأة، وهو ما يزال صغيراً، إذ لم يتجاوز الخامسة عشر عاماً، فأمسك الشاب من الخلف فضمه بقوة، وكلما صرخ ضاعف من قوته حتى استحكم الشاب.

في هذه الأثناء، لمح الزوج حجراً على بعد متر منه، فانتفض قائماً بعدما استرجع أنفاسه، أخذه ثم توجه نحو الشاب الذي كُبلت يداه، وضرب رأسه بقوة، فسقط على وجهه والدم يخرج من رأسه.

أغمض أحمد عينيهِ أمام هذا المشهد الذي تألم له، فأغلق النافذة بسرعة، ثم جلس على السرير يدخن بتؤدة. نظر إلى المائدة التي كان عليها فطور أعده توفيق قبل أن يغادر باكراً، سكب كوب شاي ثم تجمد في مكانه محاولاً استيعاب ما شاهده هذا الصباح. مرغ سيجارته في المنفضةِ بسرعة، ثم ارتدى ملابسه، وقبل أن يغادر ألقى نظرة على الزقاق، فوجد الجمع قد انفض، والأصوات تبددت إلا صوت الأطفال الذين يلعبون.

تسلل خفية، وبخطوات سريعة كان يمشي حتى بلغ الشارع الرئيس، فاستقل سيارة أجرة متجهاً نحو الحي الصناعي. كانت تلتهم الطريق، فيما كان سادراً تائهاً وواجماً، والسائق صامتاً، وبين الفينة والأخرى يرمقُ أحمدَ

خلسة من المرآة، لكن هذا الأخير لم يبالِ، وإنما أخرج هاتفه فألفى اتصالات عديدة، ومجموعة من الرسائل تطلب فيها لقاءَهُ مساء اليوم. تردد طويلاً في الرد على اتصالها، لكنه رد أخيراً، ليسمع صوتاً شجياً مبحوحاً:

- "آلو.. آلو..".

ظل صامتاً بضع ثوان، ثم رد بصوت خفيض:

- نعم..

- أحمد، أريد لقاءك مساءً لو سمحت، هناك أمورٌ كثيرةٌ لا بد أن تعرفها..

- ماذا سأعرف؟ لقد شاهدت كلَّ شيء بعيني.

- أعرف أنني أخطأت حين أخفيت عنك ذلك، فهلا التقينا مساء..

فكر لحظة، ثم عقب بانزعاج:

- حسناً، نلتقي في المقهى.

- لا، لو سمحت، ستجدني في الحديقة الموجودة في الحي..

أقفل الخط بعجالة، وما هي إلا دقائق حتى وصل الحي الصناعي، فدفع أجر التنقل ثم ترك السيارة. وقف على الرصيف يفكر، ويناجي نفسه بملامح كئيبة:

- "كم هي حقيرة هذه الحكومة، لم فتحوا المدارس والجامعات ما دمنا لا نجني شيئاً في النهاية إلا البطالة؟ إن هذا الوطن غابةٌ قد ضلَّ ساكنوها الطريقَ".

وأخرج هاتفه فتصفحه بسرعة، ثم انطلق صوب الناحية التي توجد فيها المصانع والمعامل.

كان المكان مليئاً بالبنايات العالية، ولكل بناية بابان: أحدهما كبير يدخل منه العمال والسيارات والشاحنات، والآخر صغير يدخل منه أرباب العمل وزبناؤهم. أجال بصره في الشارع الذي يفصل ما بين المعامل، فرأى أناساً كثيرين يتحركون كالنمل، رجالاً ونساء، وكلهم يرتدون وزرات زرقاء، وينتعلون أحذية جلدية، وبلاستيكية.

وبينما كان يتابع سيره، توقف فجأة أمام الشاحنات الكثيرة المختلفة شكلاً ونوعاً، والسيارات الفارهة التي يحرسها أشخاص يرتدون بذلة صفراء اللون، تتوسطها خطوط بيضاء. وكلما بلغ زقاقاً، كان يجد فيه حارساً أو اثنين يمشيان من مدخله حتى نهايته، ويتوقفان برهة عند كل سيارة، يراقبانها ويتحسسانها كي لا تتعرض لخدش ما.

تسمر أمام أحدهما، فانطلق يناجي نفسه أسفاً:

- "وأسفاه، إن واحدة من هذه السيارات أغلى من حياة حارسها، فهو لا يساوي ثمن مقودها، بل ثمن عجلة من عجلاتها. إنها أغلى منه ثمناً، وقد يحدث أن تُكسَّر عظامه فيبدو الأمرُ عادياً، لكنَّ خدشاً بسيطاً في السيارة قد تقوم عليه الدنيا ولا تقعد..".

قاطعته نظرات أسى وتوجع صدرت من حارس نحيف الجسد، وشاحب الوجه، متجعد اليدين. كان منظره الخارجي يوحي بفقره المدقع، فاقترب منه بضع خطوات، ثم بادره قائلاً:

- صباح الخير..

- صباحك أسعد.

- أريد أن أسألك لو سمحت.

- تفضل، هل تحتاج...؟

- أحتاج ماذا؟

- لدي سلعة جديدة...

- آه، ليس هذا قصدي، وإنما أريد أن أسالك عن معمل هنا، يحتاج عمالاً.

اعتلت وجهَ الحارسِ سحابةُ غضبٍ، فعقب قائلاً:

- لا أعرف، ولو كنت..

تمتم بكلمات متقطعة وخفيضة كأنه يناجي نفسه، فطلب منه أحمد تتمة كلامه، فأردف بعدما أحضر سطلاً كبيراً، وقطعة قماش، وشرع في غسل سيارة سوداء:

- لو وجدتُ ما تبحث عنه، لما غسلت السيارات وحرستها.

ابتسم ابتسامة رقيقة، وبسرعة عقبَ مُستغرباً:

- تتحدثُ بالرموزِ على ما أظنُّ.

- أنت من يتكلم كلاماً ملتوياً، تراني غارقاً في غسل السيارات، وحراستها ليلاً ونهاراً ليرمي لي أصحابها دريهمات معدودة في الأرض، وأنحني كالكلب لالتقاطها، وتسألني عن معمل يحتاجُ عمالاً.

أطرقَ دقيقةً، ثم أردفَ:

- لن تجد عملاً هنا، فلا داعي للاستمرار في البحث دون جدوى.

- ولمَ لن أجده؟

- لأن العمل لم يعد بالعضلات التي تسعف صاحبها في حمل الأثقال كحمار الطاحونة، ولا بالشهادة..

- وبمَ إذاً؟

سأله والحيرة تأخذ منه كل مأخذ. لقد فاجأه هذا الحارس الذي تبدو عليه تجاربُ سنين طويلة في دروب الحياة، وقد ازدادت حيرته حين أجابهُ بصوت رزين:

- بالوساطة، والرشوة...

تجهم وجهه، فألفى نفسه يتخبط في شركه كما تتخبط الحشرات في خيوط العنكبوت، ثم تساءل بصوتٍ يحمل نكهةَ جلدِ الذاتِ:

- إذاً، ستكون ست عشْرة سنةً قد ضاعت هباءً منثوراً؟

- هل كنتَ تدرس؟

- نعم، وتحصلت على شهادة الإجازة بعد أربع سنوات متعبة وطويلة.

ضحك الحارسُ حتى بدتْ نواجذُهُ، فعقبَ بعينين جاحظتينِ:

- تلك الشهادةُ لا تساوي شيئاً.

خفض رأسه، فانشغل في عمله، وعلى حين غرة، أردف دون أن يلتفت إلى أحمد:

- لقد ذكرتني بصديق لي، درس سنوات في الكلية، وفي الأخير ألفى نفسه وجهاً لوجه أمام الشارع وسننه وقوانينه.. الشهادة، في زماننا هذا، لا تفيد إلا العرافة.

تلفظ بهذه الكلمات الأخيرةِ وهو يضحكُ بصوتٍ عالٍ، ما دفع بأحمد إلى الاستغراب، ولم تمضِ إلا بضعُ ثوانٍ حتى توسلَ الحارسَ ليتمم إليه القصةَ:

- لقد شوقتني لسماع هذه القصة، إذ كيف للشهادة أن تصلح للبخور؟ وما علاقة الشهادة بالعرافة؟

ترك القماش من يده اليمنى، ثم أزاح السطل جانباً، وبسرعة، انطلق يمسح السيارة بجريدة ورقية، ولما انتهى جلس على الرصيف، فاقترب منه الآخر وجلس جنبه، وباهتمام بالغ كان ينصت إليه:

- منذ ثلاث سنوات، كان هناك شاب وسيم، تخرج من الكلية، فتحصل على شهادة الإجازة في العلوم التجريبية بميزة حسنة، جعلته يكاد يحلقُ فرحاً وسروراً. مرت الأيام والشهور دون أن يحصل على وظيفة، فاكتفى بأن يقدم لشبابِ القريةِ دروساً مما حصله في ثلاث سنواتٍ، كل مساء، حيث يلتقي بهم في الفدان وقد تحوموا حوله مشكلين حلقة، تذكر بأيام بغداد في

المشرق، وفاس في المغرب. فكان من بين المواضيع التي يحدثهم فيها، تبيانه أهمية العقل في الحياة الإنسانية، وبكلام مطوَّل يقول:

- "يعد العقل أعظم ملكة يملكها الكائن البشري، وأكبر سلاح يحارب به الخرافة والأسطورة منذ فجر التاريخ، ولا يخفى عليكم أن الأمم التي اتخذت العقل سراجاً منيراً تضيء به طريقها المظلم، قد قطعت أشواطاً طويلة في التقدم العلمي والفكري والسياسي والمجتمعي. لكنني أعود لأتساءل معكم، وبمرارة كبيرة، عن الأسباب التي جعلت العقل منبوذاً، ومن يتخذونه منهجاً لهم في عالمنا العربي، نماذج بشرية شاذة يجب استئصالها؟ ودون أن أدخل معكم في الأسباب الكثيرة والمتباينة التي قُدمت من قبل باحثين ومفكرين، والتي لم تستطِع أن تُرجع للعقل قوتَه ومكانتَه إلا فيما ندر، فإننا، وباعتبارنا مثقفين عاطلين عن العمل، نتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية؛ لأننا لم نبحث عن العلاقة بين ما ندرسه في الكلية، وما نمارسه أثناء تفكيرنا، وممارستنا اليومية، وتعاملنا مع القضايا التي يزخر بها مجتمعنا".

ثم يتوقف برهة محدقاً في العيون الجاحظة، كأنه يتأكد من تأثير كلامه فيهم، ثم يسترسل في بيان الغاية من لقاءاته معهم، ومكوثه بين ظهرانيهم:

- "اعلموا يا رفاقي أنني صبرت على المعاناة والمكابدات في البلدة من أجلكم. إنني أريدكم أن تكونوا عقلانيين، وألا تستخفوا بأهمية العلوم في العصر

الحالي، وتحاربوا الخرافة وتبعدوها من وعيكم، ومن أهاليكم، وممارساتكم وسلوكياتكم، فهذه وصيتي الأخيرة أيها الرفاق".

تملى أحمد بهذه الكلمات العميقة التي جعلت الحارس يذرف الدموع، قبل أن يقاطعه قائلاً:

- أفهم من كلامك أن هذا الشاب ضد التفكير الخرافي؟

- نعم..

- لكن، إذا نحن أخذنا الدين نموذجاً، فهل ترى العقل وحده كافٍ للتعامل معه؟

- هو لم يكن يدعو إلى تبني العقل وحده إلا في مجالات معينة، كما أنه يراه أداة أولية لإنتاج أي خطاب حول أي ظاهرة اجتماعية، وكيفما كان نوعها. فالدين مثلاً، وباعتباره ظاهرة اجتماعية، يحتاج إلى العقل والقلب سوية.

- وأيهما جديرٌ بأنْ نعطيَّهُ الصدارةَ في إنتاجِ معرفةٍ حول خطابٍ ديني، ونعتبره الكلمة الفصل؟

- في الدين، لا بد من الإيمان أولاً، وهذا الأخير لا يتم إلا بالتصديق القلبي الذي لا يأتيه ريب، لكن الدين ليس هو الإيمان فحسب، وإلا كان ديناً أعرج. فالاستدلال، مثلاً، على الخطاب العلمي المبثوث في بعض الآيات، لا يتم إلا بقوانينَ عقليةٍ، كما أن الدين في حاجة ماسة إلى العقل، ما دام لا يقدم لنا تفسيراً علمياً للظواهر التي تباغتنا في عالمنا الحالي.

- في الحقيقة، لم أفهم كلامك جيداً.

- سأعطيك مثالاً، الأوبئة التي تباغتنا بين الفينة والأخرى، والتي يعز أحياناً على العلماء أن يجدوا لها دواء أو لقاحاً، نجد قائلين بأنها موجودة في القرآن الكريم مثلاً، فهم لا يألونَ جهداً في العثور على الوباء لكي يستدلوا على مسايرته لظواهر العصر، لكنهم لم يستطيعوا تقديم الدواء منهُ، وهنا ترى عجزهم وحيرتهم.

- أغلب كلامك صحيح، بيد أني لا أشاطرك الرأي فيه كلِّهِ؛ لأن ثمّة أموراً أخرى تدفعني إلى تبني طريق ثالث..

قاطعه الحارس بابتسامة عريضة، إذ قال:

- أعلم هذا أيها المثقف البطالي، لكن "الاختلاف في الرأي لا يفسدُ للودِّ قضيةً". دعنا من هذا النقاش الآن، حتى أتمم لك القصة:

- كانت والدته تصب جام غضبها عليه بعدما فشل في تحقيق مبتغاه، إذ تمن عليه بما أنفقته في سبيل دراسته؛ لأنها كانت تراه منقذها الوحيدَ من محنة الفقر بعدما طلقها والده، وهو ما يزال رضيعاً. كانت تطلب منه الذهاب عند الحاجة ثُريا، عرافة البلدة وزرقاء يمامتها:

- "لمَ لا تريد مرافقتي إلى بيت الحاجةِ؟

- لن أذهب معك أبداً؛ لأنني لا أؤمن بتلك الخرافات، والعمل اليوم لا يأتي بقراءة الكف، ولا بالتعويذات الشيطانية الفارغة من أي معنى. بل إنه يأتي

بالكفاءة، وما دمت أملك شهادةً فإنني سأنتظرُ حظي كما ينتظرُ الآلافُ من أمثالي".

كانت هذه الكلمات تثير حفيظة والدته، لكن هذا لم يمنعها من ترديد هذا الكلام لشهورٍ متتاليةٍ.

تدخل أحمد مستفهما الحارس:

- لم يرضخ لوالدته، أليس كذلك؟

- كلا؛ لقد تحالف عاملانِ اثنانِ على الشاب حتى جعلاه ذليلاً في يدها. أولهما الفقر المدقع الذي يرتع فيه، وكلام الناس الذي يقض مضجعَهُ، وثانيهما تصديق خرافة والدته.

- من أين له بالتصديق وقد كان يوصي أصحابَهُ بالقضاءِ على الخرافةِ؟

- لقد كان ضحية؛ لأن الكلام حينما يُصب على رأسك صباح مساء، وبطريقة منتظمة متكررة، فإنه يدفعك إلى تصديقه، ومن ثم يغدو واقعاً في نظرك، وحقيقة مطلقة.

- يحدث هذا إن لم تكن على بينة بما تعتقد.

- لا، يا صديقي، فإعلامنا مثلا، يقدم لنا أكاذيبَ وأباطيلَ في ثوب الحقيقة، وبكثرة تكرارها نعتبرها مُسلمةً لا تقبل النقاش، لذلك فلا جرم أن يستسلم الشاب بعد مقاومات متتالية لكلام والدته، ومن ثم رافقها إلى بيت الحاجة.

دخل غرفة مظلمة وهو يتبع والدته، فاستمع إلى تعويذات العرافة باهتمام بالغ وعناية فائقة. وبعد الكثير من الحركة، والكلام المبهم، طلبتْ من والدته الاقتراب أكثر فاقتربتْ، ثم همستْ في أذنها بكلمات لم يستطع سماعها، بعدها انصرفا متجهين إلى البيت.

ولما اقتربت الشمس إلى مغيبها، وبدأ الليل يلقي بظلاله على الكون الفسيح، كانت الأم تحمل مجمراً في يدها اليسرى، مبددةً دخانه يميناً وشمالاً باليد الأخرى. ثم اقتربت منه، وأمرته بالوقوف، وأن يفتح رجليه حتى استطاعت أن تمرر المجمر بينهما.

أطبق الحارسُ بعدما رمق سيارة تهم بالمغادرة، فهرول نحوها وأخذ دراهمَ معدودةً أجرَ حراستها، ثم ارتدَّ نحو أحمد بخطوات وئيدة، ليفاجئه الآخر بالسؤال:

- ماذا حدث بعد البخور؟

ابتسم الحارس وهو يردُّ:

- اسمي حميدة، وأنت؟

- أحمد.

- ألا ترى أن اسمينا متقاربان؟

- نعم.. نعم، لكن، أتمم لي القصة..

لقد تبادرت إلى ذهن أحمد فكرةُ أن يكون الشاب الذي تُروى قصته هو حميدة؛ لأنه كان يحكي وهو على اطلاعٍ بأحداثها، وينفعل لها تارةً، ثم تنفرج

ملامح وجهه تارةً أخرى. كان يصدر حركاتٍ تنمُّ عن عمقها في غياهب نفسه، وقد عزز فكرةَ أحمدَ حين قال، وابتسامةٌ يتيمةٌ تطفو على محياه:

- لنا اسمان متقاربان، وليس بعيدا أن يكونَ لنا المصيرُ نفسُهُ.

- فليكن ذلك يا حميدة، لكن ماذا جرى...؟

- بعد أسبوع من زيارة بيت العرافة، اتصلت به شركةُ الصيدلةِ، وطلبتْ منهُ إحضارَ ملفِّهِ، ووضعتْ على رأسِ قائمةِ الوثائقِ شهادةَ الإجازةِ.

سأله باندهاش:

- إذاً، زيارة العرافة أعطتْ أُكلَها؟

- نعم..

قالها متهكماً، ثم استرسل:

- فتش وثائقه كلَّها بطريقة جنونيةٍ، فلم يجد شهادةَ الإجازةِ، وبدونها فلا عملَ كائن. نادى والدته بصوت مرتفع، فطلب منها أن تمده بشهادته إن كانت رأتها في مكان ما من غرفته، لكنها استفسرته عن سبب صراخه، فأخبرها بالأمر، وفجأة، قعدت كمن خرت قواه، وارتخت ساقاه، ثم وضعت يديها فوق رأسها، وانطلقت تبكي وتنتحب بصوتٍ شجي، وتدعو نفسها بالويل والثبور؛ لأن سذاجتها جعلتها تضيع مستقبل ابنها.

يسأله أحمد باستغراب:

- هل أضاعتها؟

- ربما..

- ما أقبح الجهل. وماذا فعل الشاب بعد ذلك؟

رمق حميدة العمال يغادرون المعامل متجهين صوب الشارع، حتى يتغدوا عند بائعي المأكولات الذين اتخذوا جنبات الشارع مكانا لهم إلى أن كادوا يستأثرون به وحدهم دون السيارات والشاحنات. كان هذا وقتَ الاستراحةِ، لذلك خاطب أحمد قائلاً:

- سنذهب لنتغدى الآن، وبعده نتمم الحديث.

- يسعدني ذلك.

توجها نحو الشارع الرئيس وهما يتبادلان أطراف الحديث بصوتٍ مرتفع، وقد كان العمال الذين يعرفون حميدة منذ ثلاث سنوات مستغربين من حركته وحيويته ذلك اليوم؛ لأنه كان يلتفت إلى أحمد، وينصت إليه بإمعانٍ مبدياً اهتماماً كبيراً، ومعقباً بكلماتٍ تنم عن مستواه المعرفي تارة، ومترجماً أحاسيسه بحركات يديه وملامح وجهه تارةً أخرى.

الآن، يتواجدان في الشارع الرئيس، وعلى الرصيف كان ثمّة أناس يعدون مأكولات متنوعة، ويضعون أمامهم عربات صغيرة، وخلفهم بضعاً من الكراسي البلاستيكية الصغيرة. كانت من بينهم امرأة طاعنةٌ في السن، اشتعل رأسها شيباً، فقد أخبره حميدة أن نسبةً كبيرةً من العمال يعرفونها منذ سنوات، وكانوا، ولا يزالون، يترددون عليها حتى يأكلوا عندها، وقد أضاف معرفاً بها:

- هذي ميِّ مينة، الجميع هنا يعرفها بأكلاتها اللذيذة، لدرجة جعلت بعضهم يُحضر أسرته يوم الأحد حتى يأكلوا السمك المقلي، واللوبيا، والعدس. أما الطاجين فغاية في اللذة.

وبينما كان يتحدث، رمق أحمد رجلاً أبيض الرأس، قصير القامة، ومتشعث اللحية، شاحب الوجه، وذابل العينين، متجعد اليدين، وحيداً أمام عربته، لا يعيره أحد المارين والعمال اهتماماً، فسأل حميدة عن سبب عزوف الناس عنه:

- أُنظر إلى ذلك الرجل، لم أرَ أحداً يأكل عنده.

ابتسم ثم عقب بملءِ شدقيهِ:

- ذاك بَّا العربي، فقد سمعته بسبب طمعه؛ لأنه كان يطهو سمكاً قديماً، وبيضاً فاسداً. أما اللحم، فإنه يقدمه للمترددين عليه طازجاً، حتى توالت حوله الشكاوى، فتم منعه من مزاولة هذا العمل لمدة سنة، لكن ما أن تُنُوسي الأمر حتى عاد إلى الظهور من جديد، لكنه لم يجد زبائن ما دامت قضيته يعرفها العمال جميعهم، وحتى من سألهم عن مكان للأكل ينصحونه بعدم الاقتراب من هذا الرجل.

عادا إلى الانشغال بالأكل كأنهما لم يكونا يتحدثان قبل ثوان، ولما انتهيا همَّ أحمد بدفع مبلغ الغداء، لكن الآخر امتنع، فارتأى كل منهما أن واجب الضيافة يقتضي أن يدفع هو، فظلا على هذه الحال دقيقة إلى أن تدخلت المرأة العجوز، وبصوت مبحوح قالت:

- "أرى أن من المناسب أن يدفع كل واحد مبلغ وجبته".

استحسنا هذا الكلام، ووافقا على اقتراحها. وفجأة، تصفح هاتفه فألفى الساعة تشير إلى الواحدة والنصف زوالاً، لذلك توسل إلى حميدة متسائلاً:

- هل يمكنك تتمة قصة الشهادة؟ وأين رمت عجلةُ الزمان بصاحبها؟

- آه، كدتُ أنسى الأمرَ.

قالها مبتسماً، ثم أردف:

- لما رأى والدته تبكي اقتربَ منها، ثم سألها عن سبب بكائها، فردت بصوت شجي متقطع:

- "لقد أحرقتُ الورقةَ التي تخبئها بين ملابسك، وهذا ما قالته العرافة".

لم يشعر حتى ضرب رأسه بالحائط، وبعد ثوانٍ صرخَ ملء حنجرته:

- "لقد فقدت عقلك، وضيعت مستقبلي بفعلك المتهور"

- "سامحني يا ولدي أرجوك".

توقف حميدة فجأة، فحاول ردَّ دمعةٍ متلألئةٍ تهلّلَتْ من عينيه، ثم أتمم بعدما حاول كفكفتها:

- بعد كل هذا، خلَّفَ وراءهُ أرضَ القريةِ يَنْشُدُ وظيفةً وعيشاً كريماً.

يعقب أحمد والحيرة باديةٌ على ملامحه:

- وأين هو الآن؟ هل لك خبرٌ عنه؟

فهم مقصوده من السؤال، لذلك لم يتوانَ في الرد:

- إن هذا الشاب هو الذي يقف أمامك.

لم يبدِ أحمدُ أيَّ استغرابٍ؛ لأنه تكهن بهذا الأمر، لذلك عقب بملامح تعرب عن حزن ثقيل يجثم على نفسه:

- قصتك حزينة..

- نعم، لذلك لم أنسَ منذ ذلك اليوم أن الشهادة في وطننا لا تصلح إلا للبخور.

فضحكا كثيراً، ثم سأله أحمدُ إن كان سيجدهُ في هذا المكانِ مرةً أخرى، لكنه لم يقدم جواباً حاسماً، وإنما ترك الأمر للأيام، فتوادعا...

****

7

انصرف صوب الجهة المقابلة من الشارع، تحسس جيبه، اكتشف أن ما بقي عنده لن يكفيه إلا لمصاريف يومين، ثم استقلَّ سيارة أجرة صغيرة. ألقى نظرة من زجاج النافذة على الأرجاء، فأحس الشمس معتدلة الحرارة، ومن ثم بدأ جسده يرتعش ارتعاش طائر فقد ريشه. كلما تثاقلت السيارة في السير، بدت له الشوارع مكتظة بالسيارات والحافلات، فعلم أن هذه الساعة هي بداية مغادرة بعض الأشخاص لأماكن عملهم.

وفجأة، استدار من النافذة، وركز بصره على قميصه؛ لأنه استغرب وجود بقعتين صغيرتين من "صلصة" الطماطم عليه، لذلك ارتأى الذهاب إلى البيت أولاً، حتى يستحم ويغير ثيابه قبل أن يلتقي بفاطمة. تذكر أن مكان اللقاء هو الحديقة الكبيرة القريبة من سكناها. وصل الحي فألفى الزقاق محاصراً برجال الشرطة الذين أتوا لإلقاء القبض على المتشاجرين صباح اليوم، لكنهم عثروا على الرجل أمام الزقاق حيث كان يجلس مع رفاقه، يلعبون الشطرنج، وعلى كتفه ضمادةٌ وقطعةُ ثوبٍ أبيض، وقد صارت حمراء بعدما بدأ الجرح ينزف. لم يستطع الهرب ولا المقاومة، وإنما كان ذليلاً، مادّاً يديه كمن ينتظر هذه الزيارة أو يتوقعها.

تقدم بضع خطوات، ثم توقف ليسأل أحد الحاضرين عن الشاب، فأخبروه أنه هرب بعدما علم بأمر رجال الشرطة، واختبأ عند أحد أصدقائه في زقاق

مظلم حيث يتاجرون في المخدرات والممنوعات. سأله أحمد بسرعة، إن كان يفكر في إطلاع رجال الشرطة على هذه المعلومات، لكن الآخر ارتعدت فرائصه وامتنع، بدعوى أن المجرم سيقضي فترة قصيرة ثم يخرج بعفو أو وساطة، فينتقم منه شر انتقام.

لم يقدم لأحمد معلومات أخرى عن ذاك الزقاق، فهو لم يخبره أن أغلب قاطنيه يمتهنون السرقة ليلاً ونهاراً، يسرقون المارة تارة، وأصحاب الدراجات النارية الذين يفرون من الشرطة؛ لأنهم لا يتوفرون على وثائق التأمين، أو أن الدراجات ليست لهم تارةً أخرى.

ومن يدري؟ لعلّه كان في غنى عن هذه المعلومات التي قد تربك تحركاته في أغلب أزقة الحي، لذلك لم يلح في السؤال، وإنما اتجه صوب غرفته، فاستحمَّ بماءٍ باردٍ جعله يشهق، وفرائصه ترتعد، وأسنانه تصطك وتضطرب. ارتدى ملابسه بسرعة خاطفة: قميصاً أزرقَ فضفاضاً، وسروالاً أسودَ، وحذاءه المعتاد. أعد مظهره الخارجي بنظام، ثم هم بالانصراف، لكن رنين الهاتف أمهله، فوجد أن المتصل هو عمر، لذلك سطعت ابتسامة على وجهه، ثم أجاب بتحفز:

- آلو.. عمر، كيف حالك؟ آه، لو تعلم كم اشتقت إليك..

يرد عمرُ بالحماس نفسه:

- أنا بخير، ولعمري إنه لشعور متبادلٌ.

- كيف كان العمل؟

بدأت حدة حماسه تفتر، وبكلمات خفيضة قال:

- لا تقل العمل، بل قل العقوبة والممارسة السجنية. إن مجال البناء متعبٌ جداً.

عقب أحمدُ وقدْ تجهم وجهه:

- كنت منتظراً منك هذا الرد، ألم أخبرك أن هذا المجال لا يليق بك؟

- لا بأس، فالرجال أينما حلوا وارتحلوا يعملون طلباً للحلال، لكن، اتركنا من هذا الآن، وقل لي: هل وجدت عملاً؟

- ليس بعد، أوَلا تدري أن العمل بات بالرشوة والوساطة؟

تنهد ثم أردف بصوت مفعم بالأسف والحسرة:

- لقد فقدت الكفاءة قيمتها في هذا الوطن يا صديقي..

عقب الآخر مؤكداً كلام أحمد:

- هذا ما أعرفه منذ حصلت على شهادتي، لكن، ماذا لو اشتغلت مع عمي؟

- رغم ما حكيته لي، فإنني سأكون سعيداً بالعمل معك، لكن، أمهلني حتى ألعب الورقة الأخيرة، وبعدها أقرر.

- هل تقمر؟

ضحك كثيراً رغم مرارة ما يخفيه في نفسه، ثم رد موضحاً:

- لا، لكني أقصد الحديث مع توفيق..

- هذا حل جيد، اعتني بنفسك، ولئن سنحت لنا الظروف فإننا سنلتقي الأسبوع المقبل..

ضحك، ثم أردف:

- سنجلس في المقهى الذي تعمل فيه فاطمة..

فذكره بها، وبموعده معها الذي اقترب، لهذا ردَّ بنبرة توحي بالغضب:

- لم أعد أطمئن لذلك المكان، لكن، حينما تأتي سنجد مكاناً آخر مناسباً.. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء يا أحمد..

سُرَّ هذا الأخير باتصال صديقه الذي تذكره حتى وهو غارقٌ في عمله الشاق، لكنه عاد ليتألم، أخيراً، لمأزق صديقه، كما يتألم منذ سنوات لحاله الميئوس منها. لكنه رأى أن عمر يعمل الآن، وكيفما كانت الحال، فإنه أفضل منه؛ لأنه ما يزال يرزح تحت نير البطالة التي نخرت كيان الوطن. كان يعرف حجم المعاناة التي يتكبدها الطالب في سبيل الدراسة، وأنه بمجرد ما ينتهي يجد نفسه قد فرَّ من سجن إلى سجنٍ آخر.

لقد نسي أنه على موعد؛ لأنه تذكر فجأة مقالة كتبها أيام كان طالباً، ضمنها أن:

- "ثمانين في المائة من شباب المغرب المجازين عاطلون عن العمل، وأن في صفوفهم من تعرض للقمع من قبل أجهزة الدولة الأمنية والإعلامية والإدارية، ومن قبل الرأي العام بالتجاهل والوقوف إلى صف الدولة حتى وإن كان يعلم، في قرارة نفسه، أنها ظالمةٌ جائرةٌ. تعرض للقمع والاضطهاد في سبيل وظيفة، يراها حقه المشروع ما دام قد درس وتحصل على شهادة

معتمدة. ومنهم، أيضاً، من أزهقت روحه، على يد رجال الأمن-القمع والفزع، وهو يطالب بحق في الحياة، بل بشرط من شروطها الاجتماعية المناسبة. ومنهم.. ومنهم...".

سافر أربع سنوات إلى الوراء في قطار الذاكرة الذي يتنقل من الحاضر إلى الماضي، ومن الماضي إلى الحاضر، دون أن يعرجَ على المستقبل؛ لأن طريق هذا الأخير غير معبدة، والسير فيها ضربٌ من المحال، لذلك، لم يشعر بمرور الوقت حتى نظر من النافذة، فرمق الشمس تجر ذيولها متثاقلة صوب المغيب، ومن ثم، ابتعد عنها واستدار نحو الساعة الحائطية التي كانت عقاربها تشير إلى الساعة الخامسة.

أحس ارتعاشة خفيفة في جسده؛ لأن الجو بدأ يزداد برودةً، لذلك اضطر إلى ارتداء صدريةٍ صوفيةٍ، ومعطفٍ جلديٍّ وجواربَ سوداءَ متداعيّةٍ، ثم غادر بخطوات سريعة. وما أن بلغ مدخل الزقاق حتى استوقفه شرطي، وطلب بطاقته الوطنية فقدمها له، تفحصها جيدا ثم سمح له بالمرور، وقد خاطبه بحزم شديد:

- "خذ حذرك".

فهم المقصود من هذا التحذير، فخمن أن الشرطي قد حذره من الكلاب البشرية الليلية التي تصطاد في الظلام كما الخفافيش، لكنه، اكتفى بأن ردَّ الجميلَ بابتسامة، ثم استرسل في خطوه. لم تكن المسافة التي تفصله عن فاطمة طويلة، لذلك استغرق في الطريق نصف الساعة، ليجد نفسه في

مدخل الحديقة. أجال بصره في الموجودين هناك بحثاً عنها، فلم يرَ إلا كائناتٍ بشريةً ممسوخةً تختبئ خلف الأشجار، وتدخن أعقاب السجائر، أو تتناول مخدراً ما دون أن تشعر بالمارين أمامها؛ لأنهم يرونها لكن هذه الكائنات لا تراهم رغم وضوح الرؤية، وبعض الأسر التي يجلس أفرادها في العشب الأخضر مشكلين حلقة، حيث يأكلون الفواكه الجافة وهم يضحكون ويمرحون.

كلما توغل في المكان رمق عاشقين هنا وهناك، إذ يمارسان الحبَّ أمام الملأ، ويتداعبان دون أن يخشيا لومة لائم. وهذا ما جعله يفكر في جرأة هؤلاء، ليستقر، في الأخير، على أن السبب كلمة واحدة، اجتثت من أصلها، وأُفرغت من محتواها. وبعد أن همّ بالانصراف، رفع بصره تجاه شجرة سامقة وارفة، كانت تبعد عنه مسافة ليست بقصيرة، فاتجه نحوها بخطوات سريعة، وما أن اقترب منها حتى رمق فاطمة جالسة تحتها، وشيئاً فشيئاً اتضحت له جيداً، كانت ترتدي فستاناً مزركش الألوان، وحذاءً جلدياً عالي الكعب.

وعلى حين غرة، رفعت بصرها لتجده ماثلاً أمامها، ابتسمت في وجهه ابتسام شوق واعتذار، وطلبت منه الجلوس فجلس جانبها. وما أن استعاد أنفاسه حتى أحس بها تقترب منه دون أن تنظر إلا نظراتٍ خاطفةً، فسادت لحظة صمت طويلة بينهما، وقد اكتفيا باختلاس النظر في بعضهما البعض، إلى أن كسرت جدار الصمت بكلمات متقطعة:

- أعتذر عما حدث يا أحمد..

لم يَحِرْ لها جواباً، فأردفت:

- لم أكن أريد أن تعرف ما أقوم به، ما أقبح الفقر..

والآن، يردُّ برباطة جأش، كأنها أفسحت له المجال للكلام:

- الفقر ليس مبرراً لفعل ذلك؛ لأن نسبة كبيرة من المغاربة يقبعون في فقر مدقع، لكن، ليسوا كلهم يمتهنون الدع...

قاطعته والدموع تتهلَّلُ من عينيها:

- أنا لا أمارس الدعارة..أنا..أنا..

لم تستطِع تتمة كلامها؛ لأن النحيب الشجي الذي يقف غصة في حلقها، جعل خروج الكلام كسكين تجرح حلقها، فارتجف قلبه تأثراً بحالها، ثم ربت على كتفها، وبالكاد تمكن من كبح غضبه، فخاطبها بكلمات حازمة:

- أنا لم آتِ هنا لأسمع البكاء، وإنما لأعرف الظروف التي كانت وراء فعلك..

كفكفت دموعها بعد لَأْيٍ، ثم تنهدت طويلاً قبل أن تقول:

- كنت أدرس في السنة الأولى في الجامعة، وفي كلّ صباح أمر من الزقاق على شاب يمتهن الحراسة في الشارع، كان وسيماً وجذاباً، لكن مع الأيام تبددت ملامحه بفعل الإدمان. وشيئاً فشيئاً، بدأت أمر أمامه مرات متتالية في اليوم، وأحياناً بدون سبب يدعو إلى الخروج، فكان يعترض طريقي حتى أخبرته بأن يزور بيتنا.

توقفت بعدما لاحظت أن ملامح أحمد تغيرت، فأدركت عمق حديثها في نفسه، لذلك استرسلت:

- رفض والداي الزواج منه، لكني وقفت جبلاً صلداً أمامهما، وأظهرت لهما أن رأيهما لم يعد يهمني ما دمت قد كبرت. ولما لاحظا إصراري استسلما فتزوجته، رغم أنه يكتري بيتاً صغيراً لكن يمكنه أن يجمع بيننا.

أطرقتْ برهة حتى رفعت شعراتها المتهدلة على وجهها، ثم أردفت:

- كنت عصرية اللباس، ولكن ما أن تزوجته حتى قررت التوقف عن تقليد والدتي الأكثر عصرية حتى النخاع، ومن ثم، سألبس لباساً فضفاضاً يغطي جسدي كله.

عادتِ الدموعُ متهلِّلَةً من عينيها، وبسرعة حاولت إيقافها، لكن قوة الجرح الدفين كانت كافية لتجرف كل مظاهر القوة والصلابة التي تتظاهر بها.

- وماذا بعد؟

سألها باهتمام بالغ، فاسترسلت:

- لما بلغ والدتي أنني غيرت نمط لباسي بعد زواجي بشهرين، ثارت حفيظتها، ولم أكن لأعرف السبب حتى عاد من العمل وهو حزين، لكنه لم يشرب الخمرة ذاك المساء، فسألته عن سر حزنه، ليرد ويداه ترتعشان:

- أمك يا فاطمة..

انتفضت من مكاني وحرقة ذكر أمي تسري في جسدي، وبسرعة سألت:

- ما بها أمي؟

- لقد أتت صباح اليوم، وصبت وابلاً من الشتيمة فوق رأسي، وكادت تصفع وجهي لولا تراجعُها فجأة.

وبحيرة قلت:

- وما السبب؟

فأجاب:

- بسبب لباسك؛ قالت إنها لم تزوجك لأفرض عليك ذلك اللباس، وأقسمت أنها ستأخذك مني إن لم تعودي إلى لباسك الأول.

وهكذا، ظلت تبذل كل ما بوسعها حتى أقنعت والدي بطلاقي، فرفعا دعوة قضائية يطالبان فيها بطلاق ابنتهما من زوجها السكير، ودفعا أموالاً كثيرة في سبيل طلاقي، فنجحا وفشلت.

أطرقتْ بعدما شعرت بهبات باردة تلسع جسدها، مما اضطرهُ اضطراراً إلى إزالة معطفه الجلديِّ، فوضعه على جسدها، ثم سألها بعدما أفرك يديه بسرعة ونفخ فيهما:

- وماذا جرى بعد عودتك إلى بيتكم؟

ترقرقت دمعةٌ ساخنةٌ على خدها، وشهقت كمن غرق في ظلمات بحر لجي، ثم ردّتْ:

- بقيت في بيتنا سنة، وبعدها مرضت والدتي مرضاً أقعدها الفراش، ويوماً بعد يوم تذوب أمامي دون أن يفعل والدي شيئاً، ومن ثم بدأت أحس قسوته الصلدة.

كفكف دمعها بتؤدة، فابتسمت له ابتسامة شاحبة، ثم أردفتْ:

- بضعة أشهر، وتوفيت والدتي فبقيت وحيدةً..

- ألم تعيشي مع والدك؟

- كلا، لكن وجوده وغيابه سيان عندي؛ لأنه تغير كثيراً بعد رحيلها.. كان يدلف إلى غرفتي ليلاً، ويحدقني بنظرات مشتعلة تنم عن شرٍ كبير. لقد تكرر هذا الفعل كثيراً حتى بدأت أخشى على نفسي منه.

- هل حاول الاعتداء عليك؟

سألها ولعابه يتطاير رذاذاً، فبكت بكاءً مريراً، ثم ردت بسرعة؛ كأنها ترمي عبئاً ثقيلاً كان يجثم على صدرها منذ سنتين:

- منعني من الخروج أو النظر من النافذة. وذات صباح، توسلت إليه بأن يسمح لي بالصعود إلى السطح لكي أتنفس، فرفض متوعداً، وفي ليلة ذلك اليوم أتى ثملاً، واقتحم غرفتي بطريقة جنونية..

قاطعها، وفي قرارة نفسه، كان يرجو ألا يحدث ما يمور داخله:

- اغتصبك؟

- نعم، حاولت المقاومة، وتوسلت إليه كثيراً بأن لا يؤذيني، لكنه ما كان ليسمعني أو يفكر أني ابنته. وبعينيه المحمرتين المشتعلتين، ارتمى عليّ كما يثب وحشٌ ضارٍ على فريسته.

- إنه وحش حقير وجبان...

وبعد دقيقتين، أردف وحركة يديه تزداد ارتعاشاً:

- وماذا فعلت؟

- لا شيء..

- ألم تخبري الشرطة؟

- لم أستطع؛ لأنني أخافه أكثر من ذي قبل.

رفعت نظرها إلى الأفق البعيد؛ كأنها تنظر إلى هدف نصبته أمامها ولا بد من إصابته، وعاد الصمت ليخيم عليهما بضع دقائق، وفجأة، أبدت رغبة في الاسترسال، وبكلمات شجية قالت:

- لم يعد قادراً على العمل، لذلك أجبرني على ممارسة الدعارة مع الأشخاص الذين يحضرهم إلى البيت..

طفتْ ثورةُ غضبٍ على وجه أحمد، وبدا كمن يجمع قواه للانتقام من عدو لم يره من قبل، لكنه يكنُّ له حقداً كبيراً لم يفلح في إخفائه أمام فاطمة التي ربطت جأشها، وتابعت:

- كنت دوماً أنتظر فرصةً للهرب. آه، كم انتظرتُ طويلاً..

- ألم يسأل عنك طليقك؟

- لا؛ لأنه دخل السجن بعد أسبوعين من طلاقنا. وبعد هروبي من البيت بحثت عنه طويلاً دون جدوى.

- لكن، لم تقولي كيف هربت؟ وإلى أين؟

- كان أبي قد أحضر شاباً، ولما دلف إلى الغرفة وجدني أجلس القرفصاء، فاقترب مني وسألني عن سبب شحوب وجهي، ومن ثم لم أتوانَ في إخباره، فقرر إخراجي من البيت بعدما دفع مالاً كثيراً لوالدي.

- وهل لامسك؟

- كلا؛ لأنه كان مثقفاً رغم ظروفه المزرية، وبمساعدته أنا هنا الآن.

- ولم اخترت هذه المدينة دون غيرها؟

- لأن لا أحد يعرفني هنا، ولما وصلت اكتريت بيتاً، واشتغلت في المقهى على مضض.

بدأت الشمس تغيب، فأقبل الظلام زحفاً، وشيئاً فشيئاً غطى الحديقة كلها، لذلك غادر الجالسون، وكان عليهما أن يغادرا المكان كذلك؛ لأنهما رمقا كائناتٍ ليليةً بدأت تتسلل خفية، وتنتشر في الجنبات وخلف الأشجار، ولم تمضِ دقائق حتى بلغا الشارع، فارتأى مرافقتها إلى حيث تسكن، وقد غرقا في لجة شرود طويل، واستراحا للصمت الكئيب الذي كان يوحي برسائل كثيرة، ويطلع الناظر إليهما عما يعتمل في نفسيهما من هموم وأشجان، وما يشتعل في صدرهما من حقد وغضب: حقد على الماضي وأحداثه وأناسه، وغضب على الذاكرة المخدوشة التي تأبى النسيان...

كان الحي الذي تقطنه يبعد عن الحديقة مسافة قصيرة، لذلك قررا أن يذهبا مشياً حتى يستغلا هذه الأجواء المسائية العذبة؛ لأن الإنارة غطت الشوارع كلها، والمارة مزدحمون ويتلامسون بالمناكب. وفي ظل هذه الأجواء الساحرة، رفعا بصريهما إلى السماء برهة، فرأيا النجوم مضيئة وشاهدة على تشابك أيديهما. وحتى أصوات الحشرات لم تفارق أذنيهما دون أن يفهما دلالتها، أو يتكهنا بذلك، فتساءلا في خلديهما عن دلالة أصواتها؟ وهل هي مصدر فرح، أو حزن، أو توجع، أم أنها دليل على قوة خالقها الذي آثر معرفة ذلك لنفسه؟

الآن، بلغا الزقاق الذي يضم بيوتاً متزاحمة، تشي بقدم جدرانها المتآكلة. كان حياً فقيراً وهامشياً كغيره من الأحياء المغربية الكثيرة، ومظلماً بما فيه الكفاية لجعل رؤية المارة، ومعرفة ملامحهم شيئاً متعذراً ما لم يُعرفوا من أصواتهم.

دقيقتان، وكانا في الغرفة الضيقة وحيدين، فشرعتْ في إزالة ملابسها بحركات عنجهية وئيدة، ثم رحبتْ به طالبةً منهُ الجلوسَ بعدما كانَ متسمراً أمامَ البابِ يقوم بعملية مسح شاملة للمكان. لقد بدا لهُ ضيق المساحة، فاسد الصباغة والديكور، وأنه لا يتسع إلا لشخصين فحسبْ، وقدْ تأكدَ من تكهنهِ حين رمقَ سريراً خشبياً متوسط الحجم، ومائدةً بلاستيكيةً صغيرةً، وبعضاً من الأواني الصدئة، وملابسَ مبعثرةً هنا وهناك.

جلس قريباً منها وجنباً إلى جنبٍ، وبينما كان الصمتُ والسكونُ يخيمان على المكان، ويضفيان عليه لوناً من الكآبة، نظر إلى إحدى زواياه فرمق كتابين متداعيين، ومرميين على الأرض، فسألها وهو يتقدم نحوهما بشغف وفضول:

- هل تقرئين الكتب؟

ابتسمت، ثم ردت:

- كنت.. أما الآن، فإنني أقرأ الحياة وصروفها.

- أعتقد أنك محبة للحكمة، أليس كذلك؟

- بلى؛ لقد كان هذا تخصصي في الكلية..

قلب بضع صفحات في الكتاب الأول، ثم سألها وعيناه مركزتان على فقرة لونت بالأصفر:

- هل تحبين الماركسية؟

- وما الذي سيمنعني من ذلك؟

قالتها متهكمة، ثم تابعت بالنبرة نفسها:

- لكنني لم أعد معجبة بها بالدرجة نفسها التي كانت في السابق.

- يا فاطمةُ، هذان كتابان ماركسيان، ولا شك أنهما شيقان..

- ربما.

- هل قرأتهما؟

- مرتين أو ثلاثاً.

- إذاً، هما ممتعان؟

- لن أقول لك شيئاً حولهما؛ لأنني لم أعد أؤمن بهذه الفلسفة التي فقدت وميضها، ولا أود تكسير أفق انتظارك..

التفتت إليه، فسألته:

- دعنا منهما الآن، وقل لي: أتوافق على قضاء الليلة معي؟

كان السؤال مباغتاً له؛ لأنه كان قد أزمع على الرحيل، لكنه عاد ليوافق:

- إذاً، عليّ إخبار صديقي توفيق حتى لا ينتظرني.

- حسناً.. سأستحم وأعود.

فأومأ موافقاً...

****

8

كان توفيق قد أعد الشاي وأحضر رغيفاً، وما أن بدأ في تصفح سجل الأرقام الهاتفية حتى رنّ هاتفُه، فردَّ دون تريث:

- أحمد، هذا أنت، ألفيْتَني أبحث عن رقمك توا..

- مرحباً توفيق، أرجو أن تكون بخير.

- أنا بخير إن كنت أنت كذلك.

- بخير. لقد اتصلت بك حتى أخبرك أني لن آتي الليلة.

- كنت أنتظرك منذ ساعة، أين ستمضي الليلة؟

- لا تهتم، سأقضي الليلة عند صديق عرفته مؤخراً، المهم موعدنا في الغد.

- مساءً؟

- لا، بل صباحاً حتى أحدثك في شأن العمل.

- سأنتظرك، ولكن لا تتأخر..

أنهى اتصاله، فوضع هاتفه على المائدة، ثم رمق علبة سجائر بين ملابس فاطمة، فتقدم نحوها آخذاً سيجارة فأشعلها، كان يدخن ويفكر. وفجأة، انطلق يناجي نفسه طويلاً ووجهه قد تجهم:

- "نسيت أن أسألها عن ذلك الوحش، إن كان ما يزال على قيد الحياة فإنني سأنهي حياته بعد أن أجعله يتذوق العذاب، ويتجرع من كأس العلقم التي تجرعتْ منها الكثير.. سأنتقم لها ولشرفها؛ لأن مثل هؤلاء لا ينبغي أن

يظلوا على وجه البسيطة. لا بد من الانتقام حتى وإن اقتضى الأمر السفر إلى مدينة أكادير.. لكن، لن أخبرها بهذا، وإنما سأحاول الحصول على عنوانها هناك، وهكذا سأتمكن من ذلك الحثالة...".

كانت فكرة الانتقام لفاطمة من والدها تمور في نفسه موراً؛ لأنها ذكرته بعذاباته وآلامه التي ظلت وشماً في ذاكرته وجسده على السواء. شرد طويلاً حتى كادت السيجارة تحرق إصبعيه، فقفز من مكانه ليبحث عن مَنْفَضَةٍ.

ثوان قليلة، وكانت ماثلة أمامه بلباسها الجذاب... فستان أحمر شفاف، طوله لا يتجاوز فخذيها، وشعراتها متهدلة على خدها المتورد، فنظرت إليه بعينين عسجديتين تشعان شبقاً، وشفتين مكتنزتين ومتوهجتين كهلال بزغ حديثاً.

أجال بصره في تضاريس جسدها الفتي، فبدت له ساقاها الممشوقتان الطويلتان أكثر جذباً له، وأظافرها التي صبغت بالأحمر. اقتربت منه وانحنت أمامه مقبلةً جبينه بشفتيها اللتين تقطران احمراراً، فيما أغمضَ عينيه واستنشق عطرها الفوَّاحَ الذي أيقظ إحساساً دفيناً في نفسه، فأحس حرارة تسري في جسده كله.. كان يتفصد عرقاً، حاول إيجاد كلمات يعبر بها عن جمالها، فتمتم:

- إنك.. إنك جميلة.. كثيراً..

ابتسمتْ ابتسامةً تفطرُ الصائمينَ، وتذيبُ جليدَ الحرمان الطويل، فعقبتْ وشفتاها تتفتحان كوردةٍ حمراءَ في ربيعٍ بديعٍ:

- حسبك مجاملة، وعن أي جمال تتحدث؟

همَّ بالكلام، لكنها وضعتْ إصبعها على شفتيها، ثم أردفت:

- عيناك هما اللتان تنظران إليّ بجمال..

اكتفى بالابتسام دون أن ينبس ببنت شفة، بيد أن ابتسامته سرعان ما خبا وميضُها؛ لأنه تذكر والدها الذي شكل في ذهنه كابوساً مزعجاً، لذلك سألها بهدوء:

- هل والدك ما يزال على قيد الحياة؟

تجهم وجهها، فأجابت بكلمات موجعة:

- مات منذ شهور، هذا ما أخبرني به الشاب الذي أخرجني من البيت.

بدتْ عليه خيبةُ أملٍ واضحةُ المعالِم، لذلك ردّ ببرودٍ مصطنعٍ:

- خير له، سيتعذب كثيراً..

- لا أدري، لكن ما عرفته أنه قد عانى المرض شهوراً..

ابتسمت كما كانت في الأول، ثم استرسلت:

- هل سبق لك أن وقعت في الحبّ؟

خمن قليلاً كمن يبحث عن جواب، ثم ردَّ بانزعاج:

- الحبّ لا يليق بنا نحن الفقراء، أُتركي ذاك لأصحابه..

- الحبّ ليس وقفاً على الأغنياءِ دون الفقراء..

- هذا أعرفه جيداً؛ لأن الاختلاف بين الفئتين هو اختلاف في طريقة ممارسته، والغاية منه، لا في وجوده..

- وما الاختلاف بينهما؟

- الأغنياء يحبون وهم مطمئنو الأنفس، ولا يفكرون في لقمة العيش..

- الأمرُ مغايرٌ لما ترى؛ فالحبّ عند الفقراء لا يكون مقترناً بمصلحة دنيئة، هم عكس الأغنياء لا يخشون على أشياء قد يفقدونها..

- إذاً، كيف ستجدُ رغبتك ولذتك إن لم تتخلص من أعباء الزمان ونوائبه؟

- الفقراء لما يمارسوا الحبّ، لا يمارسونه ببرود، وكمن لديه طقسٌ معين يقوم به وحسب..

أطبقت بضعَ ثوانٍ كأنها تلملم شتات أفكارها، ثم أردفت:

- قد ترهقك صروف الدهر، لكن بمجرد ما تمارسهُ مع الآخر، ستشعر أن جليد الهموم يذوبُ كلما سرتْ حرارتُهُ في جسدك. إنك ستجد سكناً وسكينة في حضرة الطرف الثاني.

- وهل الأغنياءُ لا يجدون سكناً فيه؟

- بداية، أنا لا أعمم يا أحمد، لكنّ أغلبَهم يمارسه بطريقة مادية غرائزية، ضارباً صفحاً عن الجانب الروحي الذي يعد حجر الأساس في كل علاقة زوجية. إنهم لا يضطجعون إلا إذا أحضر الزوجُ هديةً ما، ودون ذلك فلا حبّ. إذاً، هم ذوو مشاعر مادية، وحبّهم متوقف على الماديات، ولئن اختفت هذه الأخيرة، فإن ذلك الشعور يتبدد كأنه لم يكن.. والفقراء عكس ذلك تماماً...

- لا أعتقد ذلك؛ لأن السعادةَ حبٌّ، والحبّ سعادة، وما دام الفقراء يعانون فقراً مدقعاً فإن السعادة غالباً ما تهجرهم، ومن ثم يختفي الحبّ من قاموسهم اليومي..

- لكنّكَ تربط السعادة بالماديات، وتنسى أن لا علاقةَ لها بذلك. ففي ظلمة الفقر والفاقة يبزغ نور سعادة بين جوانح الفقراء، وما قلتَهُ قد ينسحب على الأغنياء، أما نظراؤهم فالأمر عندهم أعمقُ من ذلك..

توقفت لتبلور فكرتها في نفسها، مشكلة حيرة بين إخراجها والاحتفاظ بها، ثم استمرتْ:

- في أي صنف تريد تصنيف حبنا؟

- وهل مارسناه حتى نصنفه؟

قالها وهو يضحك، فردّتْ دون تأنٍّ:

- إذاً، دعنا نبحر في بعضنا البعض.. استعدّ، فإنني سأطفئُ الضوءَ.

ابتسم وهو يحدق فيها من رأسها إلى أخْمَصِ قدمها، مبدياً ابتسامةَ فوزٍ وظفرٍ. فأغلقتِ الباب والنافذةَ، ثم أطفأتِ الضوء، فسادت ظلمةٌ حالكةٌ المكان، واختبآ في الفراش وهما يتبادلان الهمسات واللمسات.

كان الزقاق فارغاً إلا من القطط، والظلام يغطي كل شيء، والهدوء يداعبُ النفوسَ ويأخذها إلى بر النوم رغم ما تنوء به قلوبها من أشجان وأحزان؛ لأن النوم كان، ولا يزال، سيد الموقف، و"سلطاناً على صاحبه"...

9

بدأ الليل ينجلي، والظلام يتبدد مع ضوء الصبح الخجول، والعصافير تملأ الأرجاء زقزقة تدخل البهجة على النفوس التي تحسن الإنصات. وحين تلقي نظرة على الشارع، تجده شاغراً إلا من سيارة هنا وهناك، ولا يظهر فيه إلا الأفراد الذين يعملون في الصباح الباكر. وأنت تتجه نحو الزقاق، ترمق القطط ترتع وتلعب في أكوامٍ مكدسةٍ من الأزبال، باحثة عن فطورها بعدما اتضحت الرؤية، وظهر الهدف.

كان الهدوء سائداً في الأرجاء، وهباتُ بردٍ خفيفةٌ تلفح الأجساد الناعمة العارية. مرت لحظات قليلة، فبدأت الشمس تطل من الأفق، وتزحف بخطوات وئيدة نحو الحي الذي بدأت الحركة تزداد فيه صخباً بعدما استيقظ السكان، فتقلب أحمد في المضجع ويده على خصر فاطمة التي التصق وجهها بوجهه، وشعراتها المبعثرة تلامس خده بفعلِ هباتِ بردٍ صباحيةٍ.

أزال عنه الغطاء جانباً، ثم فتش عن هاتفه وعيناه بالكاد تتفتحان، ألفى الساعة تشير إلى السابعة، فانطلق يرتدي ملابسه كمن تأخر عن موعد. تسلل إلى الزقاق بعدما تأكد من فراغه، فسار فيه بخطوات سريعة نحو الشارع الرئيس. امتطى سيارة أجرة واتجه نحو الحي متثائباً. إذ لم يمضِ نصف الساعة حتى كان في الغرفة. أزال حذاءه، واقترب من توفيق يوقظه

بتؤدة. لقد ألفاه غارقاً في النوم بعدما ظل يشتغل طوال اليوم، فكانت النتيجة تعباً أنهك جسده حتى خرت قواه. خاطبه وعيناه مطبقتان:

- أتيت؟

- نعم، استيقظ كي لا تتأخر عن العمل.

- كم الساعة؟

- السابعةُ والنصفُ.

قفز من فراشه وتوجه إلى الحمام، بحيث رش الماء على وجهه محاولاً طرد النوم من عينيه، فارتدَّ إلى الغرفة، ثم سأله وهو ينشف وجهه:

- هل وجدت عملاً؟

- لم أبحث بعد..

- ولمَ؟

- لأنني أرى الأمر مستحيلاً بدون وساطة أو رشوة.

- ربما.. على كل حال، فيمَ يمكنني مساعدتك؟

- أريدك أن تتحدث لي مع صاحب المعمل..

- تود العمل في الخياطة؟

- نعم..

- لا أظنك ستصبر على ذلك.

- ولمَ لا أصبر؟

- لأن نفسك تأبى الخضوع والخنوع يا صديقي، ومثل عملنا يتطلبُ من المرء تنازلاً عن كثير من حقوقه.

- لا تهتم يا توفيق؛ لأنني سأصبر ريثما أجد الأفضل..

- إذاً، في المساء سأرد عليك.

في الوقت الذي كان يتحاوران فيه، كان توفيق يحزم خيوط حذائه بعد تلميعه، ثم تقدم نحو مرآة مكسرة ومعلقة في الحائط، فظل أمامها دقيقةً يسرح شعره المتلبد بالمشط، ثم ودع أحمد قائلاً:

- موعدنا المساء، وإياك أن تقول لي أنك لن تقضي الليلة هنا.

- اطمئن، فستجدني هنا.

أخرج سيجارة من العلبة فأشعلها، وظل يرتشفها وهو شارد الذهن. وعلى حين غرة، لمعت في ذهنه فكرةُ الذهابِ إلى البحر، وفكر في اصطحاب فاطمة معه، فلم تجد الفكرة قبولا في نفسه. وبسرعة، ارتدى حذاءه دون أن يزيل عنه غبار الأمس، فنزل الدرج متحسساً جيبه، وتوجه تلقاء المقهى ليحتسي قهوةً سوداءَ، ويدخن سيجارة أو اثنتين، ثم يشد الرحال إلى الشاطئ الذي لم يزرهُ منذُ سنةٍ.

كان شاطئ "عين الذئاب" يبعد عن الحي كثيراً، لذلك ارتأى أن يمتطي الحافلة ما دامت سيارةُ الأجرةِ ستكلفهُ كثيراً، فتقدم نحو شاب كان يقف أمام اللوحة الحديدية التي تضم أرقام الحافلات التي تمر من ذلك الشارع، ليطلعه على رقم الحافلة التي ستأخذه إلى الشاطئ.

ظلّ متسمراً في مكانه بعض الوقت، حيث يلتفت يميناً وشمالاً، منتظراً قدومها دون أن يجلس على الرصيف. مضت بضع دقائق، وظهرت الحافلة وهي تقترب منه كالسلحفاة شيئاً فشيئاً. وقفتْ في المكان المحدد، بحيث ينزل ركابٌ حتى يصعد آخرون، ويحدث أن لا يغادرها أحدٌ ما دام الكلُّ متوجها إلى المكان نفسه. كانت ممتلئة عن آخرها، لدرجة أن بعض الركاب تكادُ أقدامهم تلامس الإسفلت.

ظلت أبوابها مشرعةً، والركابُ متمسكون بالأعمدة الموجودة داخلها، ومنهم من يتمسك بالمقاعد، وآخرون بظهور بعضهم بعضاً؛ لأن المقاعد محدودة، ومن ثم، تبقى النسبة الأكبر واقفة. لَأْيًا صعدَ، فاتخذ لنفسه مكاناً في الجهة الأخيرة، ورغم اعتدال الجو في الخارج، فإن الركاب كانوا يتفصدون عرقاً، وما أن صعد إليها حتى صفعته هباتُ حرارةٍ ممزوجة برائحة عرقٍ تزكم الأنوفَ.

أجال بصره في وجوه الركاب، فبدت لهُ مختلفة الملامح والأشكال، وفجأة رمق أربعة أشخاص يتكدسون بالقرب منه، وبعدما ضاق بهم ذرعاً تحرك بهدوء، بيد أن أحدهم صرخ في وجهه قائلاً:

- ما بالك تدوسُ قدمي؟ أفلا تبصر؟

لم يعجب هذا الكلام أحمد، فانقض عليه محاولاً خنقه. فانطلق الآخرون محاولين التفريق بينهما، وبالكاد عاد كل واحد إلى مكانه كأن شيئاً لم يحدث قبل دقيقة.

مرت ساعة ونصف ببطء، وبلغت الحافلة نقطة النهاية، فشرع الجميع في النزول الواحد تلو الآخر. نزل ورمق الشاطئ من بعيد، فاتجه صوبه بشوق وشغف كبيرين حتى بلغ المدخل رقم 3، فنزل الدرج ثم بلغ الرمال، ولأنه كان يرتدي حذاءً جلدياً، فقد ارتأى أن يزيله حتى يستطيع المشي فوقها حافي القدمين.

اقترب من الماء الذي كان موجه يزداد صخباً وموراً، فرأى الجالسين بالقرب منه يحملون أمتعتهم مبتعدين عنه بضع أميال، وما أن يستقر بهم المقام حتى يداهمهم مجدداً، وهكذا، تستمر اللعبة حتى أتى المساء، فكان وقت العودة إلى البيوت.

شرع يمشي على الرمال الذهبية، فيحس ارتعاشة خفيفة في قدميه، ثم ينظر إلى الأمواج العالية التي يعانق بعضها بعضاً، فيرمق شباناً وأطفالاً وشيوخاً يرتمون أمامها، محاولين خداعها لئلا تجرفهم قوتُها. وفي الضفة الأخرى من الشاطئ، كان يرى أفرادا جالسين وعلى رؤوسهم مظلاتٌ كبيرةٌ تقيهم قيظَ الشمسِ، وآخرين مستلقين على ظهورهم أو بطونهم، حيث يتقلبون في الرمال بأجسادٍ شبهِ عاريةٍ، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، فظل برهةً مشدوها أمام شاب كان يمرر يديه على جسد فتاة مستلقيةٍ على بطنها. كان مشهداً مثيراً، جعله يتذكر الليلة التي قضاها برفقة فاطمة يتقلبان في الفراش حتى الفجر، فاستشعر أسفاً في نفسه على عدم إحضارها معه هذا الصباح.

تقدم في المسير كثيراً، حتى استوقفه طفلٌ صغيرٌ يحملُ قفةً تحوي فواكهَ جافةً، فابتاع منه بعضها، ثم استمر في السير إلى أن تحسس جيبه، فتفاجأ حين لم يعثر على هاتفه، فانطلق يفتش جيوبه مرات متكررة وبطريقة هستيرية. اعتقد أنه ضيعه في البحر، لذلك عاد من حيثُ أتى بخطوات جنونية، فانطلق يستوقف كل من وجده أمامه، ويسأله إن كان قد رأى هاتفه بعدما يقدم له وصفاً، لكن النتيجة كانت تبوء بالفشل كل مرة، لتنتهي أجواء البهجة والانشراح، ويعود مسرعاً صوب محطة الحافلة، حيث ألفى الناس مزدحمين مثقلين بأمتعتهم، وأجسادهم مليئة بحبات رملية متناثرة.

انتظر إلى أن أتت الحافلة، فظن أنه سيجد السائق نفسه، لكنه تفاجأ حين اكتشف أن لون الحافلة التي أتى فيها كان أزرق، وهذه لونها أصفر وأحمر، فانزوى في ركن دون أن ينبس ببنت شفة حتى وصل الحي.

استيقظت فاطمة بعد لأيٍ، وانطلقت تتصفح هاتفها، وبعد ثوان انشغلت بإعداد الفطور، طهت بيضاً في مقلة صغيرة، ثم وضعتها على المائدة بعدما أعدت الشاي، فشرعت في الأكل وهي شاردة الذهن، تناجي نفسها:

- "ما الذي تفعلينه أيتها الطائشة؟ لقد فررت من قيظ الشمس لتلقي بنفسك وسط نار تحرق كيانك. هل سيبادلني الشعور نفسه؟ وما الذي سيتغير لو أخبرته...؟".

استمرت في متاهة السؤال وقتاً طويلاً، ثم قررت الاتصال به لتدبير لقاء ثانٍ يكون البوحُ محوره، فاتصلت مراراً دون أن تلقى جواباً، ثم وضعت الهاتف فوق صدرها واستلقت في شرود.

كاد النوم يملكها لولا رنينُ الهاتف الذي جعلها تقفز من موضعها كأن أفعى لدغت ظهرها، فاستقبلت الاتصال، لتسمع ضحكاتٍ متعاليةً، وكلماتٍ نابيةً لمجموعة رجال، فانطلقت تصرخ ملء حنجرتها:

- أحمد.. حسبك مزاحاً، إنني اشتقت إليك...

ليفاجئها الردُّ بأصوات جماعية غوغائية:

- ونحن أيضاً اشتقنا إليك.. هل يمكن أن ندبر لقاءً في اليوم قبل الغد أيتها اللعينة...؟

لم تستطِع سماع المزيد من الكلام النابي، لذلك أوقفت خط الاتصال والدموع تغمرها من حيث لا تشعر، ثم عادت لتستلقي على سريرها، فشرع النوم في السيطرة عليها شيئاً فشيئاً.

ترجل الحافلة وهو سادرٌ، لا يدري الوجهة التي سيقصدها. وبعد لحظات، ارتأى زيارة فاطمة في بيتها، فانطلق بخطوات سريعة في قيظ شمس بلغت ذروتها، لتؤول إلى زوال شيئا فشيئا. كان يحس ألماً شديداً في قدميه اللتين انتفختا حتى استحال على حذائه تحملهما، فاضطر إلى الجلوس تحت شجرة

على الرصيف بضع دقائق، ثم استرسل في المشي بعدما استرجع أنفاسه، واستراحت قدماه.

أجال بصره في المتسولين الذين يقفون في مفترق الطرق، منتظرين أن يرمي إليهم أصحاب السيارات دريهمات، لكنه أشاح وجهه عنهم، ليجد أمامه ثلة من الفتيان والفتيات يدخنون، ويتداعبون وقد تعالت أصواتهم، فانحرف عنهم جهة الطريق، ثم استرسل في المشي مختبئاً عن الشمس.

وصل الحي الذي تقطنه، فأسرع الخطو حتى بلغ الزقاق، ثوان وكان أمام الباب يطرقه طرقات خفيفة، لكنها لم تجد نفعاً، فهمَّ بالانصراف فإذا به يسمع صوتاً شجياً يناديه من الخلف باسمه.. التفت بسرعة، فوجدها تنظر إليه بعينين غائرتين، وشفتين ذاويتين. تقدم نحوها، فتحت الباب على مصراعيه فدلف، ولم تمضِ بضع ثوانٍ حتى ألفى نفسه بين ذراعيها فبادلها قبلات حارة تنم عن عتاب رقيق، وكلما اشتد العتاب ازدادت القبلات قوة؛ كأنهما يسعيان إلى إفراغ ما في قلبيهما في فم بعضيهما.

وفجأة، تسللت من بين يديه، وجلست على السرير، فاقترب منها وجلس.. سادت لحظة صمت بينهما إلى أنْ تمتمت بكلمات متقطعة:

- اتصلتُ بك كثيراً، لكنك لا ترد.

- متى؟

- قبل ساعة، فأجابني حثالة من أشباه الرجال، يصبون على أذني وابلاً من الكلام الفاحش..

- لقد ضاع مني...

- أين؟

- لا أدري..

- ألم تشعر بذلك؟

- لم أشعر.. المهم هو أنني جئت لأخبرك بهذا وأنصرف.

- إلى أين؟

- البيت؛ سأنام قليلاً ريثما يعود توفيق ليحدثني عن العمل..

- وفيمَ ستعمل؟ العمل شبه منعدم هذا الشهر، وأغلب المعامل والشركات تطرد عمالها بحجج واهية.

- ربما، سأعمل رفقته في الخياطة.

- تحسنها؟

- لا، لكنني سأقوم بعمل ما وسط المعمل، ما يهمني هو العمل ما دمت قد صرفت كل ما كان في حوزتي..

تقدمتْ صوب حقيبتها الصغيرة، وأخذتْ منها ورقةً نقديةً قيمتها مائتا درهم، ووضعتها في يده ثم قبلته، فانفرجت ملامح وجهه، وقبلها هو الآخر.. التفتَ حتى ينصرف، لكنها أوقفته متسائلةً:

- والهاتف؟

- بسيطة؛ سأبتاع آخرَ حالما أعمل.

- إذاً، ستكون مضطرا لزيارتي كل يوم..

قالتها وهي تتمايل أمامه بعنجهية، فردَّ متسائلاً:

- وهل ثمّ شكٌّ في ذلك؟

ثم انصرف إلى البيت مسرعاً في الخطو...

****

10

غير توفيق ملابس العمل، وبعد ذلك غادر المعمل رفقة العمال من الباب الكبير، إلا أنه لم يذهب إلى البيت مباشرة، وإنما ظل قريباً من سيارة صاحب المعمل ينتظره، حتى سمع رنين الباب الصغير، فاستعد للحديث معه وقد ربط جأشه. كان صاحب المعمل رجلاً بديناً، له قامة قصيرة ورأس اشتعلت شيباً، وعيناه صغيرتان، يرتدي نظارة بيضاء، ومعطفاً أسود وسروالاً أزرق، وحذاء بني اللون ملمعاً، تشي نظراته المتجهمة بقسوة القلب، وجفاء الطبع، وخبث السريرة. وبينما كان يعالج مفتاح سيارته، تقدم نحوه منادياً:

- الحاج ميمون، الحاج ميمون..

التفت خلفه وحدجه بنظرة شزراء، كادت تحبط همته، وبالكاد نطق بكلمات جافية:

- هذا أنت.. ما الأمر؟

- أريد أن أتحدث معك لو سمحت.

- لا وقت لي، لكن قل ما عندك بدون لف ودوران.

- لدي صديق يود العمل إن كان ممكناً.

مرر يده المتجعدةَ على لحيته ثم سأله:

- هل يفهم في مجال الخياطة؟

تبرم وتردد في الجواب، لكنه ردّ بارتباك:

- هو ليس خياطاً، لكن يمكنه أن يقوم بأي شيء ما دام يود العمل.

- سنرى، أحضره غداً، ولما آتي سأخبره بما سيفعله..

انشرح لما سمع هذه الكلمات التي تلألأ لها وجهه، فانكب على يد ميمون ليقبلها، لكن هذا الأخير جرَّها بسرعة. توجه نحو الشارع الرئيس بخطوات سريعة، وعلامات الفرح تكتسح وجهه المغبر، فانتظر الحافلة دقيقتين، لما أتت استقلَّها متوجها صوب البيت.

كان أحمد قد بلغ الزقاق، لكن قبل أن يدخل، ذهب عند البقال وابتاع منه خبزاً وبعضاً من الزبدة البلدية، ثم توجه صوب البيت. دلف، ثم أزال ملابسه، وبدأ يغسل الأواني، ويعد الشاي قبل أن يأتي صديقه. كان يتفنن فيما يقوم به؛ كأنَّ له خبرةَ سنين في إعداد الشاي: أغلى الماء جيداً، ثم وضع حبوب الشاي في الإبريق، فصب كأس ماء مغلٍ عليه، ثم انتظر دقيقةً، وبعده، أفرغه في كأس أخرى، ثم عاود صب ماءٍ مغليّ آخر في الإبريق، فانطلق يحركه بطريقة دائرية حتى صار الماء مسوداً، ثم أفرغه في الطست، وأفرغ الكأس الأولى في الإبريق، وملأه بالماء عن آخره، ثم وضعه فوق النار. دقيقتان، وكان الشاي قد عُدَّ، فأخذ وريقات النعنع بعدما غسلها جيداً ليزيل عنها الغبار، ووضعها في الإبريق، وبسرعة، أتبعها، أتبعها بقطعتين من السكر كي لا تحترق الوريقات. انتظر دقيقة، فانطلق يصب الشاي في

كأسين، ثم يعيد إفراغهما في الإبريق لثلاث مرات. والآن، أنهى مهمته، فشغّل المذياع، ثم استلقى على ظهره منتظراً صديقه بفارغ الصبر.

وهو مستلقٍ، كان ينتظر جواب توفيق على أحر من الجمر، ويناجي نفسه بأنه سيضطر إلى البحث عن عمل في المقاهي إذا فشل صديقه في إقناع رب عمله، لذلك وضع في ذهنه سبلاً عديدة للحصول على مبتغاه. لقد نفذ كل ماله، ولم يبقَ لديه إلا ما أعطته فاطمة، ومن ثم، فالعمل، بالنسبة إليه، بات ضرورة تفرض نفسها بقوة.

وصل توفيق الحي، فتوقف عند البقال كي يقتني الخبز، لكنه أخبرهُ أن الشخص الذي كان رفقته منذ أيام، قد ابتاعه، فأرجع نقوده إلى جيبه ثم توجه نحو البيت حيث ألفى أحمد ممدداً فوق سريره وعلامات التعب بادية عليه؛ كان يومه متعباً وشاقاً، لذا لم يكن أمامه إلا النوم...

اقترب نحوه ..حركه بطريقة هادئة هامساً في أذنيه:

- أحمد... أحمد.

استيقظ هذا الأخير فصافحه ثم انصرف إلى الحمام ليغسل وجهه، وينظر إلى المرآة بطريقة جنونية.. كان يتحسس لحيته المتشعثة، ويعيد الكرة مرات كمن يبحث عن شذرات وجهه التي بدأت تتبدد في المدينة.. عاد إلى الغرفة، ثم جلس قرب المائدة، فانطلقا يأكلان دون أن يتوقفا عن الكلام.

كان توفيق يتحدث وملامح السعادة تكسو وجهه:

- هنيئاً لك يا صديقي؛ ستعمل معنا..

- تمازحني، أليس كذلك؟

- ولمَ سأفعل؟

- لأن العمل لا يُعثر عليه بهذه السهولة، وإنما يحتاج إلى وقت وصبر طويلين..

- هذا صحيحٌ إن لم تكن تعرف أحداً.. لقد تحدثت معه فرحب بالفكرة.

توقف عن الأكل ثم انطلق يقول:

- وما الذي سأقوم به ما دمت لا أحسن الخياطة ولا إصلاح الآلات؟

- لكنك تحسن حمل البضاعة وشحنها، أليس كذلك؟

- بلى..

- إذاً، استعد للعمل يا أحمد...

انتفض هذا الأخير من مكانه، ثم انطلق يفتش عن بعض الأطمار الرثة حتى يأخذها معه إلى المعمل.

سأله عن يومه فحكى له كل شيء حتى بلغ قصة الهاتف.. أطبق لبرهة، وهذا ما جعل الآخرَ يُلْحِفُ في السؤال:

- لمَ ألزمت الصمت؟ هل حدث لك خطبٌ ما تود أن تخفيه عني؟

- ليس كذلك، إلا أنني ضيعت هاتفي..

قالها وهو يتأسف، فعقبَ على كلامه بسؤال آخر:

- وأين فقدته؟

- ربما في الحافلة، أو في الشاطئ.

- هل كانت الحافلة مكتظة؟

- نعم، كانت ممتلئة عن آخرها، كما أني تشاجرت مع شخص داخلها، كنت أود خنقه لولا تدخلُ أصدقائِه، بيد أن ما استغربته هو كونه لم يحرك ساكناً، وإنما كان يصرخ دون أن يلمسني بيديه..

ضحك توفيق حتى بدت نواجذه، فانطلق يقول وقد حاول كتم الضحك:

- وأولئك الذين فضوا نزاعكما، هل صدرت منهم حركات ما؟

حاول استرجاع الموقف وما حدث في يومه، فتذكر أنّ شخصاً منهم كان يدفعه وهو واضع يديه تحت معطفه، زاعماً أنّه يبعده عن صديقه، لهذا طفق يقول:

- نعم، لاحظت تصرفات غير عادية، وأحسست بيدٍ تدخل جيبي، لكنني كنت مشغولاً مع ذلك الجبان. وبعد أن ترجلوا الحافلة في المحطة ما قبل الأخيرة، أيقنت أن هذه الخصومةَ مدبرة..

- وكذلك يفعلون؛ إنهم يختلقون سبباً ما للخصام، ثم يأتي الآخرون مدعين فض الخصومة، لكنهم ينتهزون الفرصة حتى يختلسوا ما بجيبِ المرء، هم من سرق هاتفك يا أحمد.

استجمع هذا الأخير قبضته، ثم انطلق يتأسف ويتحسر على غبائه.. قام توفيق من مكانه متجهاً صوب الصنبور ليغسل يديه وفمه، وبعده تمدد في فراشه وهو يردد:

- نم باكراً؛ لأن العمل ينتظرنا، كما أننا سنجد مشكلاً عويصاً في التنقل..

- حسناً.

أطفأ أحمد الضوء بعدما ألقى نظرة على الزقاق حيث رمق رجلاً يتدثر أطماراً بالية، ويفترش قطعاً كرتونية ممزقة. كان يتقلب من شدة البرد، فيتكور كالجنين في بطن أمه. في هذه الأثناء، لمعت في خلده فكرة أخذ غطاء إليه؛ لأنه كان يملك غطاءين متداعيين، فارتأى أن يحتفظَ بأحدهما ويعطيه الآخر.

نزل الدرج بخطوات خفيفة سريعة، ثم اتجه نحو الرجل، أحس هذا الأخير بقدومه فانطلق يصب وابلاً من الوعيد على من يقترب منه دون أن يستطيع الوقوف على ساقيه. اقترب منه حتى امتثل أمامه، فقفز الرجل من مكانه محاولاً تأمل ملامح هذا الشاب الغريب الذي لم يسبق له أن رآه؛ لأنه كان يقضي ليله في الزقاق، لكن ما أن يعرب ضوء الصباح عن نفسه حتى يستيقظ من ثمالته، فيذهب إلى بيته حيث يظل غارقاً في النوم إلى أن يقبل المساء.. يدخل المطبخ بحثاً عن أكل، وبعده يغادر بيته دون أن تراه زوجته وأبناؤه؛ لأنهم كانوا يغادرون البيت في الصباح الباكر للعمل، ولا يعودون حتى يكتسح الظلام الأرجاء، ومن ثم لا يحسون دخوله البيت ولا مغادرته.

ثم يتجه نحو أصدقائه في الحديقة حيث يشكلون حلقة دائرية وهم غارقون في لعبة الشطرنج، ولما يرخي الليل سدوله يخرجون قنينات الخمر التي يخبئونها بين الشجيرات، فيعاقرونها حتى وقت متأخر من الليل. وبعدما

تبلغ ذروتها في عقولهم، يتفرقون وهم يترنحون كالغصن المنفرد، إذ لكل منهم وجهة: فالذين يملكون بيوتاً يتجهون نحوها، ومن ليس لهم بيت ينامون في الحديقة مفترشين العشب، ولا يحسون برداً ولا صقيعاً ما دام دبيبها قد سرى في دمهم...

قدم له الغطاء، ثم عاد إلى البيت دون أن تصدر عنه حركةُ إزعاج توقظ توفيق، فنام. ساد السكون في الأرجاء، وأُطفِئت أضواء الشوارع، ولم يعد يُسمع إلا نباحُ الكلابِ ومواءُ القطط، وهذيانُ المتسكعين والسكارى...

****

11

بزغ ضوء الصباح خجولاً كعادته، فبدا كأنه يزاحم الليل في الأرجاء ليبدد ظلامه الدامس، ويوقظ العصافيرَ والكائناتِ البشريةَ من سباتها. لقد كان الصباح، ولا يزال، إعلاناً عن البعث والتجدد والحركة؛ فبعد السكون والوحشة والظلمة، تأتي الحركة والأنس والضوء، وبعد النوم العميق يأتي الصباح ليعلن عن بداية يوم جديد، لهذا ترى الطيور تغادر أوكارها، والقطط التي كانت تجوب الأمكنة ليلاً تفتر حركتها نهاراً، والكلاب التي تظل الليل كله يقظة ونباحها لا يتوقف، تنعدم حركتها؛ إذ تراها نائمة في الحدائق، أو على الرصيف. أما الناس، فإنهم يستيقظون وهم كسالى بعد أن تداعب أشعة الشمس أجسادهم، وتثمط قبلاتُ الصباحِ الباردةُ وجناتِهم.

حين تلقي نظرة على الأشجار الموجودة في الحدائق وعلى جنبات الشوارع، تلمح بخاراً خفيفاً يتصاعد منها مبدداً في الفضاء بعد أن تبدأ حرارة الشمس فعلها. ففي هذه اللحظات الصباحية النسيمية، أشاح أحمد الغطاء عن وجهه الذي بدا شاحباً كمحارب غادر ساحة الوغى لتوه، وبالكاد وقف على ساقيه الخائرتين، ثم انتعل صندلاً بلاستيكياً، توجه نحو الحمام حيث مكث دقائق قبل أن ينشف وجهه الممتقع، ويرتدَّ إلى الغرفة ليوقظ صديقه. هذا الأخير كان غارقاً في نومه، إذ رأى فمَهُ مفتوحاً عن آخره، ويديه معقودتين على صدره كأنه يقبض على قلبه لئلا يخرج بفعل ضيق التنفس.

كان توفيق يعاني اختناقاً ثقيلاً بحيث يظل طوال الليل يسعل سعالاً يكاد يخترق الجدران المتآكلة، ويوقظ الجيران من سباتهم. تعترضه هذه الحال مرات متعددة، وغالباً، لم تمضِ ليلة إلا وأحس أنّ ثمّة عبئاً ثقيلاً يجثم على صدره، وبلَأْيٍ كان يتنفس، ويتجرع جرعات ماء بطريقة متتابعة بطيئة.. زار طبيباً في المدينة، فأخبره أنه مصاب بمرض الربو الذي يحتاج احتياطاتٍ دقيقةً، وأدويةً متنوعةً: نصحه بتهوية المكان الذي يعمل فيه، وبوضع كِمامة على أنفه وفيهِ حتى لا يستنشق الغبار في المعمل. أما في البيت، فيلزمه فتح النافذة حتى في شدة البرد وضراوته، وهذا ما عرفه أحمد بعدما قضى أياماً رفقته، فكان كلما أراد إغلاق النافذة ليلاً، توسل إليه صديقه أن يتركها مفتوحة. كان يطلب رب العمل لكي يتركه يعمل في الساحة، بيد أنه كان يصادف رفضاً مكرراً ودون أي مبرر. إذ كلما فاتحه في موضوع مرضه، توعده بالطرد، وواقعُ الحالِ يُظهر أنه ليس الوحيدَ الذي يعاني الربو، وإنما هناك نسبةُ خمسٍ وسبعين في المائة من العمال تعاني هذا المرضَ الذي بات مزمنا مع مر الأيام وكر الشهور.

تعاون الصديقان على إعداد الفطور.. تناولاه، ثم انصرفا وهما يشعان حيوية منقطعة النظير. كان هذا اليوم الأول لأحمد في العمل، لذا تراه يقفز من شدة الفرح، أما توفيق فإنه لم يكن فرحاً بذهابه إلى المعمل الذي يراه إيذاناً بموته، ومستودعاً مؤقتاً لروحه المتمردة، وإنما فرح لقدوم صديقه معه،

والعمل رفقته في المكان نفسه، لهذا ركبا الحافلة رقم **97** وهما يضحكان إلى أن ترجلا، ثم توجها نحو المعمل وعقارب الساعة تشير إلى السابعة وأربعين دقيقة. كان للمعمل بابان: صغير وكبير. طرق توفيق الباب الصغير فخرج البواب مرتدياً وزرة زرقاء، وطربوشاً أبيض يحمل، في مقدمته، اسم الشركة وعنوانها وعلامتها التجارية. كان نحيف البنية، طويل القامة، له وجه دائري وعينان ضيقتان حمراوانِ غارقتان في جمجمته، وفم واسع يحوي أسناناً متآكلة صفراء اللون، آيلة للسقوط في وجود أي طارئ، وشفتاه مسودّتان مشققتان. كان سرواله أزرق، وينتعل حذاء جلدياً غليظاً، في مقدمته قطعة حديدية أُدمجت مع الجلد، إنه يشبه أحذية الجهاز القمعي التي تكسر العظام، وتزهق الأرواح إن اضطر صاحبها لذلك. كان البواب يرتعش من شدة البرد، وفي يده اليمنى سيجارة احترقت بفعل هبات البرد الصباحية، بيد أنه يأبى رميها؛ لأنه ظل يرتشفها حتى وإن احترقت. ابتسم كعادته في وجه توفيق، وسلم عليه ثم سأله عن أحمد، فأخبره أنه سيبدأ العمل معهم هذا اليوم.

دخل توفيقُ وأحمدُ خلفه، فاتجها إلى غرفة صغيرة في الساحة حيث يغير العمال ملابسهم. كانت الغرفة ممتلئة عن آخرها؛ لأن عدد المترددين عليها كثير جداً، لذلك يضطر العامل إلى تغيير ملابسه بسرعة فائقة حتى يترك

مكانه للذي ينتظر في ساحة المعمل. وبعدما غيرا ملابسهما، توجه توفيق إلى عمله بالطابق الثاني في المعمل وبقي أحمد ينتظر مجيء ميمون في الساحة.

بمجرد ما تدلف مدخل المعمل إلى الداخل، ترمق آلات الخياطة مصطفة بطريقة منظمة، بحيث يفصل بين آلة وأخرى نصف متر، كل الآلات متشابهة من حيث الشكلُ واللونُ والوضعُ والوظيفةُ، ولا يختلف إلا أصحابها ووظائفهم: فمنهم طائفة مختصة في جمع قطع الثوب والجلد، وأخرى مكلفة بخياطة الجيوب ووضع الأصداف في أماكنها، وكذا اللمسات الفنية الأخيرة على الألبسة، وثالثة تقطع الثوب بناء على مقياس محدد، ولون معين، وشكل مصمم.

كان توفيق ينتمي إلى المجموعة الثالثة، فمهمته هي تقطيع الثوب وفقاً للمقاييس والشروط التي يتطلبها كل نمط من الألبسة. شرع في العمل وهو يتبادل أطراف الحديث مع عامل يعمل قريباً منه، كان هذا الأخير يسأله عن الشخص الجالس في الساحة ومن يكون، وبعدما أطلعه على كل شيء، سأله دون أن يرفع بصره عن المقص والثوب:

- هل تظن أنه سيصبر على معاملة الحاج وجفائه؟

يرد توفيق وقد توقف عن العمل:

- هذا ما يشغلني منذ أمس؛ لأنّ لصديقي نفساً أبية، رغم أنه أخبرني أن ما يهمه هو العمل.

- أهو خياطٌ؟

- لا...

- إذاً، ماذا ستكون مهمته هنا؟

قالها وهو يحدق في توفيق بعدما قطب حاجبيه، فأجابه هذا الأخير بهدوء:

- هذا ما لم أعرفه بعد، دع الأمر حتى يأتي ميمون.

بهذه الكلمات انتهى الحديث بينهما، فعاد كل واحد إلى الانهماك فيما يقوم به، آخذاً حذره من الخطأ، أيّ خطأ؛ لأن في هذا المعمل لا مجال للخطأ.

كان العمال يرتدون ملابس متماثلة، لكن أعمارهم تختلف من واحد إلى آخر: فهي تبدأ من العشرينات إلى الخمسينات، وما يجمع بينهم هو التواجد في المكان نفسه، في حين أن وظائفهم تتباين حسب مستوى كل واحد، ودرجته في إحكام الصنعة وإتقانها.

في هذه الأجواء الصباحية، كانت الشمس قد انتشرت في الفضاء كله، مبددة ما تبقى من قطرات الندى الصباحية.

استيقظت فاطمة متأخرة، فتثاءبت طويلاً قبل أن تزيل الغطاء عن جسدها الأملس شبه العاري، ثم انتعلت شبشباً أزرق، وتوجهت نحو الحمام الذي كان ضيق المساحة، متآكل الجدران، حيث انطلقت ترش الماء على وجهها، وفي كل مرة تزيل ما علق فيه من المساحيق إلى أن عاد إلى حاله الطبيعية. ثم ارتدت ملابسها بسرعة، بعدما ظلت مدة متسمرة أمام الدولاب، محاولة اختيار لباس أنسب. وبعد طول تفكير، ارتدت فستاناً أحمر، وانتعلت حذاء أسود عالي الكعب، ثم أخذت المرآة الصغيرة من

حقيبتها، متأملة وجهها، ومتحسسة إياه لفترة تقارب الخمس دقائق. تذكرت أحمد الذي لم ترَه منذ أمس، ولم يتصل بها بعد، فكانت تحدث نفسها وهي سادرة في فضاء الغرفة الصغيرة:

- "لم يتصل ليسأل عني، ومعنى هذا أنه وجد عملاً ما، لذلك غاب كل هذا الوقت، وإن لم يجده فكيف لي بمساعدته؟ وهل سأعود إلى المقهى البائس، أم أني سأبحث عن عملٍ آخر؟ عليكِ أن تخرجي يا فاطمة؛ لأن العمل بات ضرورة، لكن، أي عمل تقصدين؟ سأعود إلى المقهى، ربما، لكن أحمد...".

لم تكن في حال تخول لها الاختيار ما دامت متأرجحة بين اختيارين؛ كانت تعتقد أن صاحب المقهى لن يوافق على عودتها؛ لأنها غابت أياماً. حاولت البحث عن عذرٍ ملائم: هل تخبره بأنها كانت مريضة، أم أنها كانت مسافرة؟ بيد أنها تذكرت أنها تخبره حين تود السفر حتى تأخذ أجرتها، وشيئاً إضافياً من المال إن تفضل به صاحب المقهى.

بعد طول حيرة، وجدت عذراً ملائماً للذهاب: ستذهب لتسأل عن أجرتها، ولئن فاتحها في شأن العمل، فإنها ستوافق دون تروٍّ أو ترددٍ، لكن، وآهٍ من "لكن" هذه؛ لأن ما يأتي بعدها سيعود بها إلى الحزن والكآبة.

انصرفت بعد أن أغلقت الباب، ثم توجهت نحو الشارع الذي امتلأ صخباً وضجيجاً، فانتظرت قدوم الحافلة رقم **8**. كان المنتظرون متكدسين حول

فاطمة. مرت دقائق معدودة، وصلت الحافلة فصعدت متوجهة صوب المقهى.

كان المعمل صاخباً بأصوات الآلات التي لا يقر لها قرار، أما العمال، فإنهم ظلوا صامتين منغمسين في العمل الدؤوب: لا يئنون ولا يشتكون، ولكنهم يحملون في نفوسهم جبالاً من المعاناة والهموم التي تتكاثر عليهم كل يوم بسبب ميمون. لم يكن هذا الأخير يجد وقتاً للمجيء بشكل يومي، لكن كلماته الثقيلة التي لا تراعي حرمة ولا تخطئ هدفاً، ظلت تتردد في أسماعهم لدرجة أن من سولت له نفسه التهاون في العمل، ما أن يتهاون حتى ينبع صوت داخلي يحدثه:

- "لن أسامح من تهاون في عمله، أو أقبل له عذراً. لا تنسوا أن الآلات تراقب حركاتكم وسكناتكم، وأن كل واحدة منها تسجل عدد الساعات التي اشتغلها العامل، ومتى بدأ عمله وانتهى منه...".

كانت هذه الكلمات التي يصبها على رؤوسهم في بداية كل أسبوع قمينة بأن تزجرهم، بحيث إنهم يعملون وهم يتوجسون في أنفسهم خيفة. لقد اعتبر العمال هذا الصوت بمثابة إنذار لهم كلما تهاونوا، ومنهم من يراه الضمير الأخلاقي الذي يوجه صاحبه إذا ما حاول الانحراف، وآخرون زعموا أنها الهيبة التي يتصف بها ميمون بفعل شخصيته الكاريزمية. اختلفت تأويلاتهم وتبريراتهم لهذا الصوت الجهوري العميق الذي يظل قابعاً في قرارة أنفسهم، بيد أنهم متفقون على وجوده في دواخلهم، معترفون بفعاليته

الدائمة التي لا تفتر. ولعلّ هذا ما جعله حاضراً في نومهم، وأثناء غيابه عنهم أيضاً.

ظل أحمد واقفاً في الساحة منتظراً مجيء ميمون الذي تأخر كثيراً، فارتأى أن ينتزع بعض المعلومات من البواب، فتقدم نحوه ثم سأله:

- أرى أن ميمون قد تأخر، هل سيأتي اليوم؟

أخذ البواب كرسياً واتجه صوبه فجلس، ثم قال بصوتٍ فيه نبرة الغضب:

- تأخر أم لا، هذا ما لم يسأل عنه عامل قط؛ لأن الحاج ميمون لا وقت محدد له، ويحدث أن يغيب اليوم كله، بيد أنك تتفاجأ به أمامك في خمس دقائق الأخيرة...

أطبق ثوانٍ ثم أردف:

- إياك أن ترد له قولاً قاله، أو أمراً أمر به...

- ولماذا؟

- هو رجل شديدٌ صلبٌ، والتعامل معه يقتضي الصبر، ونفساً طويلاً، والأفضل أن تضع أعصابك في ثلاجة.

استغرب هذا الكلام، فتذكر ما قاله توفيق، لذا عقب بهدوء:

- فعلاً هو رجل شديد حتى وإن لم أره بعد، ولكن ما سيجعلني أصبر هو حاجتي للعمل ليس إلا.

ما أن أنهى كلماته حتى سمع البوابُ منبّهَ السيارةِ الصوتيَّ، فانطلق يركض تجاهه. فتح الباب الكبير بعدما ألقى نظرة من ثقب في الباب الصغير، ثم

انزوى في الحاشية ينتظر دخول السيارة الفخمة. ترجل ميمون سيارته ووجهه متجهم.. ألقى نظرة خاطفة على أحمد جعلت فرائصه ترتعد من هول نظرة هذا الرجل التي تنم عن قلب فظ. سأل البوّابَ بصوت مرتفع:

- من يكون هذا الشاب؟

- إنه صديق توفيق، قال إنه تحدث معك أمس بخصوص العمل هنا...

- نعم، تذكرته الآن.

ثم التفت ناحيته، فخاطبه:

- ما الذي تحسن فعله؟

رد الآخر بكلمات متقطعة:

- يمكنني عمل أي شيء.

- إذاً، اتبعني.

توجه ميمون وأحمد نحو مدخل المعمل، ثم دلفا إلى قاعة واسعة الأرجاء، فتوجها إلى المصعد حيث ضغط ميمون على رقم **4**، أي الطابق الرابع. كان الاثنان ينظران إلى بعضيهما نظرات مبهمة وهما في المصعد، حتى بادره مكسّراً جدار الصمت الذي خيّم عليهما لحظات:

- هل أخبرك صديقك عن قوانين العمل هنا؟ وكيف تسير الأمور؟

- لم يخبرني بالكثير...

- إذاً، لا بد أن تعرف أن من لا يعمل بتفان لا مكان له بيننا، ومن سولت له نفسه أن يتلاعب معي، فإنني لن أسامحه، بل إني سأطرده في الحال دون تعويض.

لم ينطق بكلمة، وإنما اكتفى بأن حرك رأسه مشيراً إلى الموافقة. لقد كان يعرف أن المعمل معبد، والمعبد معمل، والاختلاف بينهما اختلاف في كيفية العمل والغاية منه، لكن الكاهن القابع في المعبد، لا يختلف عن العامل الذائب في المعمل؛ فكلاهما يؤدي وظيفة لرمز أعلى منه مكانةً، وكلاهما يعمل تزلفاً لهذا الرمز الذي قد يكون دينياً ميتافيزيقياً أو بشرياً دنيوياً.

توقف المصعد في الطابق الرابع، فانصرف ثم تبعه أحمد حتى بلغا قاعة طويلة المساحة، فيها رفوف حديدية، وعلى كلّ رف وضعت لفائفُ كبيرةٌ من الثوب المختلف الألوان والأشكال.. ألقى أحمدُ نظرةً على الأرض فوجدها ذات زيليج متآكل، وكلها أزبال، إنها قاعة فوضوية مبعثرة: فالمكتب مرمي في جانب، والوثائق في جانب آخر، وبعض آلات الخياطة المعطلة توجد في كل الجنبات.

أمره بأن ينظف هذه القاعة، ويرتب أغراضها، ولما ينتهي، عليه بالانتقال إلى القاعة الواسعة التي تضم لفائفَ ثوبٍ كبيرةً، وقطعاً من القماش. لقد كانت هذه القاعة ممتلئة عن آخرها، والظلام يغمرها كلَّها باستثناء بصيص ضوء ينفذ من شقوق بعض النوافذ التي أغلقت فأحكم إغلاقها. تسود

المكانَ رائحةٌ تزكم الأنوفَ، إنها رائحة الثوب المهترئ، وفيها غبار يطلي الفضاء كله، وكلما حمل أحمد شيئاً في يده، صارت هذه الأخيرة سوداءَ كأنها وضعت في رماد، والشيء نفسه ينسحب على الأثواب وقطع القماش والآلات المعطلة.

شمر على ساعديه، ثم انطلق في العمل بسرعة حتى لا يسمع لوما من ميمون، فكان كلما ألفى وثيقة ما توقف عندها دقيقة: يقرأها ويحاول فهمها حتى يتبين مضمونها.

كانت الأجواء في المعمل ملتهبة، والجميع منغمساً في عمله دون أن يلتفت يُمنةً أو يُسرةً، أو ينبس ببنت شفة؛ لأن ميمون قبل أن يغادر المكان خاطبهم:

- اسمعوني جيداً، اليوم سيكون لدينا عمل شاق، فنحن محتاجون إلى عدد كبير من الأقمصة حتى نلبي طلبات الزبائن.

كان أحد العمال يناجي نفسه، وعيناه كانتا مركزتين في ميمون:

- "إن هذا الرجل ينخر الجشعُ نفسَهُ، لا يفكر إلا في الحصول على مال وافر ليس إلا. فما دام يريد أن نشتغل أكثر، فلابد من تعويضات على أتعابنا، وساعات العمل الإضافية".

باغته ميمون متسائلاً:

- كريم، مالي أراك سادراً؟ هل لديك كلام تود قوله؟ تفضل...

- لا..لا، أبداً، كن هنيئاً الحاج.

كان كريم يعرف أن هذا الشخص مخادع؛ فهو كلما طرح سؤالاً ما فعل ذلك بهدوء، مبدياً رغبة واهتماماً شديدين بالإنصات للآخر، والعمل برأيه إن كان صائباً، لكن هذا الفعل هو مجرد فخ يغري المخاطَب حتى يُخرِجَ ما في جُبَّتِهِ، فينقلب عليه كما ينقلب السحر على الساحر، لذلك كان العمالُ جميعُهم يُبدون موافقةً مطلقةً لما يتلفظ به، ويحدث أحياناً كثيرة أن يعقبوا جميعاً:

- "كلام معقول...".

خضوعاً واستسلاماً؛ لأنهم كانوا داخرين، إذ إنهم يُسألون ولا يَسألون، ويُؤمرون ولا يَأمرون، ويُحاسَبون ولا يحاسِبون، ويستحضرون حقوقه قبل حقوقهم. إذ كلُّ ما يسعى إليه العمالُ هو الحظوة برضاه واستحسانه.

في هذه الأجواء، كان العمال يقضون أيامهم، وهم ينتظرون عصا سحريةً تنتشلهم من مأزقهم هذا إلى وضعية أحسنَ وأجودَ، لكنهم لا يريدون أن يسهموا في هذا الانتقالِ الذي يملأ نفوسَهم حسرةً. كانوا يخبئون بين جوانحهم براكينَ من الهموم والاستغلال والاستعباد، بيد أنهم لم يكونوا ليفكروا في وسيلة للخروج من هذا الوضع الذي يُرثى له. كان الجميع ينتظر المهديَّ المنتظرَ الذي سيملأ المعملَ قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئَ جوراً واستغلالاً...

****

12

دلفتْ إلى المقهى والحيرة تأخذ منها كل مأخذ.. تقدمت نحو الشاب الذي يُعِد طلبات الزبائن، فبادرها بالسؤال قبل أن تسترجع أنفاسها:

- فاطمة، على السلامة. أين كنت خلال هذه الأيام؟

ردت دون أن تفكر فيما ستقوله:

- نعم..نعم، لقد كنت...

قاطعها سؤال صاحب المقهى:

- ومن ذلك الشخص الذي سأل عنك؟

هنا، أصيبت بدهشة، لذا ربطت جأشها، ثم قالت بعينين حمراوين:

- لقد كنت مريضة منذ أيام، والشخص الذي سأل عني كان ابن عمي، أتى ليطمئن على أحوالي...

- وهل تودين العودة إلى العمل؟

أجابت دون تردد:

- نعم، ولهذا جئت.

- حسناً، إلا أن ثمةَ مستجداتٍ في الأمر.

- ما هي؟

- ستشتغلون عشْرَ ساعاتٍ عوض ثماني ساعات في كل يوم.

- وهل سنحصل على تعويض؟

تبرم ثم حك مقدمة رأسه الصلعاء، فانطلق يجيب:

- في البداية، لن تحصلوا على تعويض؛ لأن المقهى يمر بأزمة كبيرة. تعرفين أنّ ثمة ضرائبَ كثيرةً ندفعها، وحتى الزبائن لم يعودوا يترددون على المقهى كما كانوا. لذلك، لا بد أن تتعاونوا معنا حتى نجتاز هذه المحنة بسلام.

أطبق ثوانٍ، ثم أردف:

- لا تنسي أن المقهى ملكٌ لنا جميعاً، ومنه تحصلون على لقمة العيش، والحفاظ عليه هو حفاظٌ على هذه اللقمة...

ظل مدة طويلة يصب وابلاً من الكلام على رأسها دون أن يترك لها فرصة للتعقيب أو الرد والاستفهام؛ كان يتحدث بطريقة سريعة، وما أن ينتهي من كلام حتى يخوض في آخر. وأمام هذا الوضع، لم يكن في مقدورها إلا أن توافق، لذلك سألها بالسرعة والنبرة نفسيهما:

- ستبدئين اليوم أم غداً؟

علتْ سحابةُ غمٍّ سماءَ وجهها قبل أن تردَّ بفتورٍ:

- سأعود غداً، ولكن...

قاطعها:

- لكن... ماذا؟ إياكِ أن ترفضي مجدداً.

- لا..لا، ولكن أحتاج إلى بعض المال.

تحسس جيوبه بطريقة بطيئة، ثم أخرج ورقة نقدية قيمتها خمسون درهماً، فقام بوضعها في كفها. تسلمت المبلغ وهي واجمة، فنظرت إليه طويلاً، ثم انصرفت دون التفات.

اتجهت نحو البيت آثرةً المشي على أقدامها؛ لأنّ الجو كان بارداً رغم وجود الشمس، لذا استملَّتْ به كثيراً، وحاولت من خلاله نسيانَ ما قاله صاحب المقهى. وبينما وهي تسير، استوقفها مرورُ زوجين وهما يمسكان يديْ بعضيهما، حيث يمشيان وهما يضحكان ويتداعبان. تذكرتِ الأيامَ التي قضتها رفقة أحمد، فأخرجت هاتفها، ثم بحثت عن رقمه. اتصلت به مراراً دون أن تعرف سبب تعطيل الرقم، حتى تذكرتْ أنهُ ضيعهُ منذ بضعة أيام. فاستمرت في المشي إلى أن بلغت حديقة صغيرة، بها أشجارٌ كثيفةٌ سامقةٌ، ويملأها أناسٌ كثيرون من مختلِف الأجناس والأعمار. دلفت إليها، ثم أجالت بصرها في الفضاء كله بحثاً عن كرسي شاغر. وبعد دقيقة، رمقتْ كرسيا خشبيا فارغا في أحد الأركان، فتوجهت نحوه، ثم جلست تنظر إلى المترددين على المكان. مر أمامها رجلٌ أبيضُ الرأسِ، نحيلُ الجسدِ، قصيرُ القامةِ، يدفعُ عربةً صغيرةً أمامهُ، ويردد بصوتٍ مرتفعٍ:

- "الكلية ...الكلية...الكلية".

تحسست حقيبتَها اليدويةَ، أخرجت درهمين، وخاطبته بابتسامة مُتودِّدَةٍ:

- أعطني واحدة لو سمحت...

رد عليها بعدما أوقف عربته:

- "مرحباً بنتي، ها هي ذي ساخنة وطرية".

تسلمتها، فانطلقت تأكل وعيناها مشدوهتان بطفل صغير يلاعب قططاً صغيرةً بطريقةٍ جنونيةٍ، ووالداه يبسمان من بعيد؛ لأنه يطاردها، وما أن يقترب منها، ويحاول إمساك ذيلها، حتى تنتفض غضباً، مصدرةً مواءً إن تأمله عارفٌ بمنطقِ الطير، سيتَبيَّنُ أنه عتابٌ رقيقٌ للطفل، كما أنها لا تفكر في إيذائه ما دام صبياً صغيراً لا يفكر في إيذائها. لذلك، ظلّ يكرر هذه اللعبةَ مرات عديدة، وفي كلّ مرة تبتسم فاطمة في وجهه؛ لأنه يبادلها الابتسامَ نفسَهُ.

تغيرتِ الأوضاعُ في القاعة، حيث أصبح كل شيء موضوعاً في مكانه بطريقة منظمة؛ كأن أحمد كان يفكر مراراً وتكراراً قبل أن يضع الشيء موضعه، فأضحت الغرفة منظمة ومختلفة عما كانت عليه في البداية. وبعدما أنهى هذه المهمة الأولى، قام بجمع الأزبال والنفايات في أكياس بلاستيكية كبيرة، وما أن وضعها في ركن حتى ألفى توفيق خلفه يخاطبه باستحسان:

- أحسنت، لقد صارت القاعة جديدة، ولا شك أن هذا سيجد قبولاً حسناً في نفس ميمون.

- ليس لهذه الدرجة، وما قمت به مجردُ عملٍ تنظيميٍّ بسيطٍ.

- كلا، لقد أبليت بلاءً حسناً..

تحرك في الفضاء قليلاً، ثم أردف:

- ألم تنظر إلى الساعة؟

- لا، لكن لمَ؟

- هذا وقت الغداء، والجميع قد غادر المعمل باستثناء كريم ونحن الاثنين.

ترك ما في يديه بسرعة، ثم توجه رفقة توفيق إلى المصعد حتى ينزل إلى الطابق السفلي. وقبل أن يبلغا الطابق، لمعت في ذهن توفيق فكرة المرور على كريم لعلّه يرافقهما. توقف المصعد في الطابق الثاني، ثم دلفا إلى القاعة حيث انطلق توفيق يخاطبه قائلاً:

- كريم، هذا وقت الغداء.

توقف عن العمل، ثم رد بصوتٍ هادئٍ ووجهٍ متجهمٍ:

- لا رغبة لي في الأكل هذا اليوم.

يسأله باستغراب:

- وما السبب؟

لم يُجِرْ كريم جواباً، بل اكتفى بالصمت لحظات إلى أن قال موضحاً:

- أريد أن أعمل كثيراً، هذا اليوم، لعلّي أطالب ميمون بالتعويض. اذهبا أنتما...

انصرفا وتركاه منهمكاً في عمله. كان المعمل شاغراً إلا من كريم وصوت آلته. بلغا الباب الكبير فألفيَا نفسيهما في الشارع الرئيس حيث العمال مصطفون، يأكلون في أماكنَ مختلفةٍ. لقد كانوا يأكلون جماعات وفرادى، ومنهم آخرون ظلوا في المصنع؛ لأنهم يحضرون غداءهم في علب بلاستيكية

تضم مأكولاتٍ متنوعةً: أرزاً تم طهوُهُ في الماء الساخن، وبطاطس وبيْضاً مسلوقاً. أخذا كرسيين عند المرأة العجوز، فجلس بعدما طلبا طبقين من السمك المقلي، وقليلاً من الطماطم المطحونة، والبطاطس المقلية في الزيت...

****

13

انغمسا في الأكل بعدما دخلا في فترة صمت طويلة. كان أحمد يأكل بسرعة، وهذا ما استرعى صديقه فقال له:

- أرى أنك تأكل بسرعة كمن يسابق الزمن.

- نعم...نعم، إنني أريد تنظيف القاعة الأخرى حتى لا أصطدم مع رب العمل...

ابتسم توفيق ثم عقب:

- يبدو لي أنك ستحظى بمكانة راقية بيننا.

رمقه باستغراب كمن يبحث عن تفسير لهذا الكلام، ففهم توفيقُ ما تحمله نظراته من معنى، لذلك انطلق يشرح له:

- ما دمت تعمل بهذه الطريقة المتفانية، فإنك ستحصل على مشروعية استمرارك هنا.

- لم أفهم بعد؟

- حسنا. كل العمال يتم اختبارهم في اليومين الأولَيْنِ، فلئن كان عملك متفانياً خلالهما، فهذا دليل على أنه سيطمئن لك، ولكن...

- لكن ماذا؟

- لكنك لن تنال اعترافاً من لدنه.

- ولم؟

- لأنك ستخرج بنتيجتين: إما أن تستمر في العمل وتكون مطالباً بمضاعفة مجهودك، وإما أن تطرد فتجد نفسك في الشارع...

- إذاً، ما الحل؟

ضحك توفيق قبل أن يقول:

- الحل هو العمل بتأن وتروٍّ.

- كيف؟

- الأمر بسيط جداً: اعمل بطريقة العمال في كل المجالات، إذ كلما رأيت الحاج ميمون تبذل مجهودا جبارا خلال الخمس دقائق التي يقضيها عند رأسك، وما أن ينصرف حتى تعود إلى عملك بالوتيرة التي تجعلك تعمل حتى وإن لم تقم بشيء...

- بيد أن جميع العمال يعملون بتفانٍ حتى وإن لم يراقبهم أحد.

- نعم، لكنك لم تعرف السبب؛ إنهم بُرمجوا على ذلك، وهذا ما لا أريد أن تقع فيه يا أحمد. لقد تطلب مني الأمر سنتين حتى أتخلص منه.

أطبق لحظة ثم أردف:

- لا أريدك أن تخشاه أبداً...

طأطأ رأسه ثم قال:

- لن أخاف مخلوقاً يوماً.

ابتسم توفيق لحظة، ثم اكتفى بالقول:

- حسناً. إذاً، تناول غداءك بسرعة حتى نتمكن من أخذ قيلولة.

أنهى الصديقان غداءهما فدفعا حسابهما، ثم عادا إلى المعمل لكي يناما الخمس عشرة دقيقة المتبقية. ولما دخلا وجدا كريماً في القاعة السفلى، يفتش في البضاعة دون أن ينيرها، وما أن رآهما ماثلين أمامه حتى رمى ما في يديه، ثم سألهما بغضب:

- ماذا تفعلان هنا؟

أزال العرق من جبينه، واستدرك:

- لقد أنهيتما غداءكما بسرعة.

رد عليه توفيق والحيرة تمور في نفسه:

- ذلك لأننا نريد أن ننام قليلاً.

- ولمَ دخلتما القاعة؟

استغرب هذا السؤال، فكان رده صارماً:

- كريم، يبدو لي أنك نسيت نفسك.

- بمعنى؟

- أنت مجرد عامل مثلنا، وسؤالك هذا لا يليق بمستواك...

تدخل أحمد لما أحس بأن الجو بدأ يتوتر:

- لم يحدث شيء. توفيق، فلننسحب.

أخذا كرتوناً طويلاً، ثم انصرفا تجاه الساحة فافترشاه، وبعد دقيقتين كانا غارقين في النوم. وما أن ناما دقائق معدودة حتى دق الجرس معلنا انتهاء

وقت الاستراحة، فاستيقظا مذعورين، ثم توجها إلى العمل دون أن ينبس أحدهما بكلمة.

عاد توفيق إلى آلته، ثم شرع يعمل بحيوية ونشاط. أما أحمد، فقد دخل إلى القاعة الثانية التي كانت الفوضى تظهر من مدخلها، فبدأ ينظف، ويرتب ووجهه يتفصد عرقاً، وتنفسه بدأ يضيق دقيقة بعد أخرى.. كان يبحث عن نافذة يدخل منها القليل من الهواء، لكنه لم يجد إلا نوافذَ مغلقة، لا ينفذ منها سوى بصيص ضوء لا يبدد ظلاماً، ولا يوضح رؤية. ظل يعمل في القاعة ما تبقى من يومه، ولم يغادرها حتى الساعة السادسة والنصف مساء بعدما سمع الجرس، فنزل متوجهاً إلى القاعة التي يغير فيها العمال ملابسهم. كانت مكتظة عن آخرها، فلم يكن أمامه إلا الانتظار حتى تفرغ قليلاً. وهذا ما حدث، إذ انتظر حتى انصرف كريم، فدخل بعدما غسل، ثم بدأ في إزالة ملابس العمل ليرتدي ملابسه الأخرى.

دقائق معدودة، وكان أحمد ينتظر صديقه في الساحة الواسعة وأمارات التعب تطفو على وجهه. فكان يجول ببصره في بقايا الثوب التي توجد في الساحة كلها بطريقة عشوائية، لذلك تكهن أن عمل الغد قد يكون فيها بعد أن يفرغ من القاعة الكبيرة.

خرج توفيق والابتسامة تعلو محياه، ثم انصرفا تجاه الشارع الرئيس. انتظرا الحافلة خمس دقائق. ولما وصلت، صعدا وانطلقا يبحثان عن مكان وسط

الحشود التي تملأها بطريقة فوضوية، حيث الرجال والنساء متقابلون، ويتلامسون بالأرداف أحياناً، والأكتاف أحيانا كثيرة.

بلغا الحي، فغادرا الحافلة ثم توجها إلى حيث يقطنان. ارتأى توفيق أن يذهب إلى السوق الصغيرة الموجودة قرب الحديقة. هناك يتجمع الباعة المتجولون، وأصحاب الدكاكين. كان يريد أن يبتاع قليلاً من الخضر واللحم، ثم يعود إلى البيت. أما أحمد، فقد مر على البقال فاقتنى الخبز.

ثم توجه إلى البيت وهو يسير بخطوات وئيدة، دلف إلى الغرفة فتوجه مباشرة نحو النافذة، وفتحها ثم ظل ينظر إلى الزقاق بضع دقائق. تذكر آخر يوم رأى فيه فاطمة، والأحاديث التي دارت بينهما، وبعد لحظات قرر زيارتها، لذا غادر الغرفة مسرعا، ثم توجه إلى الحي الذي تسكنه.

بلغ الزقاق الضيق، ثم البيت حيث طرق الباب طرقات خفيفة لكنها سريعة ومتتابعة. فتحت الباب، فتفاجأت بهذه الزيارة المباغتة. رحبت به وطلبت منه الدخول وإغلاق الباب، فيما دلفت إلى الغرفة وهي تمرر يدها على شعرها الكثيف المتهدل.

جلسا على السرير حيث ظلا لحظات يتبادلان نظرات شبقية، تنم عن رغبة جامحة في الاتصال بعد أيام من الانفصال. اقتربت منه حتى لمس جسدُها جسدَهُ، ثم وضعت يدها اليسرى فوق كتفه، فطفقت تثمط خده بقبلات متتالية ومتباطئة، أذكت أحاسيسه الباردة، فلم يجد أمامه من خيار إلا

الارتماء في حضنها، والذوبان في جسدها للحظات لم تنهها إلا طرقات الباب.

كان الطارقُ صاحبَ البيتِ الذي أتى دون موعد، فصرخ في وجهها ولعابه يتطاير:

- ما هذه العادة المقيتة؟

سألته باستغراب:

- ماذا تقصد؟

- اليوم الثالث في الشهر.

- وما المشكل في ذلك؟

- ليس ثمة مشكل ما دمت قد ألفتِ هذه الفعلة.

- أنت تعرف أني لم أتأخر في تسديد مبلغ الإيجار يوماً. هذه المرة الأولى التي تأخرت فيها بضعة أيام، وقد فعلت هذا لظروف قاهرة...

- هذا الكلام الفارغ لا يقنعني. اسمعي جيداً، إما أن تدفعي مبلغَ الإيجارِ وإلا ستجدين أطمارك البالية، وأغراضك الصدئة في الزقاق.

- حسناً، غداً سأدفع لك.

- سنرى... لقد نبهتك حتى لا أفاجئك بما سأفعله...

انصرف صاحب البيت، لكنها ظلت متسمرةً في مكانها لحظاتٍ إلى أن سألها أحمد:

- أهذا صاحب..؟

أجابت بعد برهةِ صمتٍ:

- نعم، هو ذا اللعين.

- لا تقلقي؛ سأبحث له عن ماله.

- لا، يا أحمد، لا تكلف نفسك عناء ذلك.

ابتسمت في وجهه ثم عادا إلى الانصهار في بعضيهما، تاركيْنِ أعباءَ الحياةِ وصروفَها وراءهما.

بدأ الظلام يخيم على الأرجاء، وأضواء الشوارع تنير المكان كله. فغادر الغرفة وهو يتوارى من القوم، متجها صوب البيت بخطوات سريعة. لم يمض نصف ساعة، حتى ألفى نفسه في الزقاق الذي غادره قبل ساعتين. ولج الغرفة فألفى صديقه قد أعد العشاء، وحمل كتاباً بين يديه يطالعه باهتمام بالغ، لكن، ما أن رمقه حتى وضعه جانباً، فبادره بالسؤال:

- أين كنت؟

- كنت جالساً في الحديقة.

- هل أرهقك العمل هذا اليوم؟

- قليلاً، لكن المشكل ليس في العمل، وإنما في صاحبه.

- ما الأمر؟

- كلامه الثقيل جثم على صدري، ولم يعجبني قط، ويبدو أنني لن أصبر عليه طويلاً.

قالها ثم أطرق، فعقب الآخرُ دون أن يستطيع إخفاءَ اضطرابه وقلقه:

- لا تقل هذا الكلام مجدداً.

- ولم؟

- ليس هذا وقتَهُ، وأنت في أمس الحاجة إلى العمل، فاصبر..

ثم ساد الصمتُ بينهما برهة، فأخذ الكتاب الذي كان يطالعه صديقه، وانصهر بين سطوره دون أن ينبس ببنت شفة. ظل مدة سادراً في الكتاب؛ إذ كانت ثمة تساؤلاتٌ كثيرةٌ تمور في ذهنه موراً، بيد أن الوقت لم يكن مناسباً حتى يفتح نقاشاً معه حولها، لذلك وضع الكتاب، ثم جلس قرب المائدة ليتناول العشاء في صمت...

****

14

مضى يومان على بدايته العمل، وقد لقي إعجاباً لدى ميمون الذي أبدى علامات الرضا، فبدأ يكلفه بمهمات أخرى تجعله يتحرك وسط الآلات ومستعمليها، ولم يعد مكلفاً بالعمل لوحده في الطابق الرابع.

في صباح اليوم الثالث، دخل ميمون المعمل على غير عادته، ثم توجه نحو المدخل، ليطلب من البواب جمع العمال كلهم في الساحة حتى يخطب فيهم. فانطلق البواب من الطابق الأول فالثاني ثم الثالث، يصرخ في الجميع أن صاحب المعمل يطلبهم في الساحة بشكل مستعجل. ترك العمال ما بأيديهم ليلبوا الدعوة دون تأخر، إلا كريم الذي ظلّ مستمراً في عمله كأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد، تسمر البواب أمامه، ثم سأله باستغراب:

- ألا يعنيك الأمر؟

- أي أمر تقصد؟

- منذ دقائق وأنا أصيح فيكم: الحاج يطلب الجميع في الساحة...

- وما شأني أنا؛ هو يطلب الجميع وأنا لا أرى نفسي واحداً منهم.

نظر إليه والحيرة تملأ محياه، فلم يكن أمامه إلا أن يتلفظ بكلمات سريعة:

- أنت واحد منا، وأرجو ألا تُوجه الأنظارُ إليك.

- ماذا تقصد؟

تلفظ بها وهو يقفز من مكانه كأن أفعى لدغته فأردف:

- إلامَ تلمح؟

- إن الغضب يستأسد به، وأعتقد أن ثم أمراً جللاً.

- وما السبب؟

تمتم بصوتٍ منخفضٍ:

- سألته، لكنه لم يجب.

ترك كريم الثوب من يديه المرتعشتين، ثم تسمر في مكانه دون حراك. لقد كان سادراً حيث ينظر إلى اللا شيء... كان العمالُ جميعُهم مصطفين في الساحة الواسعة إلا هو؛ لأنه لم يلتحق بهم إلا بعد أن تخلص من الارتباك والخوف اللذين ملآ وجهه الشاحب كمن أغمي عليه.

أجال بصره في الجمع الغفير، وتأمل الوجوه جيداً كمن يقرأ ملامحها الواجمة الشاحبة التي تظهر عليها سنين القهر والتسلط الطويلة. فطفق يخطب فيهم وهو يرغي ويزبد:

- مضت سنوات كنتم متفانين في عملكم، لصالح المعمل الذي تحصلون على لقمة عيشكم منه، ولم تحدث يوماً أفعالٌ مخلةٌ بأخلاقيات العامل فيه. بيد أننا اكتشفنا، منذ يومين، أنّ ثمّة سرقةً في البضاعة، وقد تم هذا الفعل الدنيء من داخل المعمل.

اشرأبت الأعناق لهذا الخبر، وامتقع لون الوجوه، وكادت العيون الزائغة تغادرُ مكانها، فبدأت دقات القلوب ترتفع. كان الجميع يتبادل النظرات المتسائلة،

كأنهم يزيحون التهمة عنهم بمجرد ما ينظرون إلى بعضهم. لقد نظر أحمد مرات عديدة إلى صديقه الذي فهمَ القصد وراء هذه النظرات الحائرة التي تحرق نفس أحمد. كان هذا الأخير يلتفت إلى صديقه، ويناجي نفسه في صمت:

- " في ذلك اليوم، كان الجميع خارج المعمل إلا كريم، دخلنا المكان فوجدناه يفتش في الظلام. ماذا كان يفعل هناك إن لم يكن... لا، لا، لن يفعلها ".

كان الصديقان متأكدين من أن السارق هو كريم، بيد أنهما ظلا صامتين طوال المدة التي كان ميمون يتحدث فيها، ويصب وابلاً من الوعيد على السارق، والوعد للمخبر عنه:

- اسمعوني جميعا، من كشف لي عن اسمه سأعطيه مبلغَ خمسمائة درهم، ويومين من الراحة مدفوعي الأجر. وأما السارق، فإنني سأطرده شرَّ طرد، ووالله لن يأخذ مني ولو درهما واحداً، إلا الإهانة التي يستحقها.

لما سمع الجميعُ إغراءاته لمن سيشي له باسم السارق، اتسعت أعينهم، فانطلقوا يحدقون في بعضهمُ البعضِ من جديد؛ كأنهم يريدون أن يصْطفُوا ضحيةً معارضةً لهم حتى يجمعوا على إلصاق التهمة بها. انفرد أحمد بصديقه، فانطلق يحدثه بكلمات هادئة:

- ما رأيك في كلام هذا الجبان؟

- تقصد الحاج ميمون؟

- نعم، لا تقل له الحاج مجدداً...

قالها بنبرة الآمر، فسأله مستغرباً:

- ولمَ لا؟

- لأنه يعامل الجميعَ كالقطيع.

- هذا لا يهمنا الآن، ولكن، أخبرني عمّا بدا لك غريباً في كلامه.

- فهمت منه أنه لا يتوعد السارق بالذات، وإنما يقصدنا جميعاً، ويريد أن يقول لنا: إن لم تكشفوا عن الفاعل، فجميعكم سارقون حتى حين...

- هذا يخصه، وما دام السارق مجهولاً فلا أحد سيسلم من شكوكه.

أطبق لحظة ثم استرسل:

- أحمد، هل تذكر ذلك اليوم الذي عدنا فيه بعد الغداء، فألفينا كريم...

قاطعه وسبابته فوق شفتيه:

- اصمت يا هذا، إياك أن تتم هذا الكلام.

- ولمَ سأصمتُ؟

- لأننا لم نرَ شيئاً، وهذا ما سيكون لسان حالنا جميعاً.

- لكني أشك في كريم.

- نحن لم نرَه قط، بل لا نعرفه. تذكر هذا جيداً يا توفيق.

- أفهم من كلامك أنك تطلب مني السكوت عن الإخبار بالسارق...

- هو ليس سارقاً أبداً، ولن يكون كذلك.

- ومن يكون إذاً؟

سأله باستغراب، فأجابه وملامح الجدية تظهر عليه:

- هو بطل... إنه بطل...

- ما هذا الهراءُ؟ هل ترى السارق بطلاً؟

- نعم، هو بطل في عيني؛ لأنه سرق حقه فحسب.

- حقه؟ أرى أنك تهذي...

ابتسم ثم قال:

- أنا لا أهذي، وإنما أقول ما أعتقده صواباً. ما قام به كريم يجب أن يُعمم على الجميع، يجب عليهم أن يتحدوا ضد الاستغلال...

تفرس توفيق في وجهه ثم عقب:

- يا أحمد، أتفق معك من حيثُ الأفكارُ التي تصدر عنها في كلامك، ولكن، ألا ترى معي أن هناك اختلافاً كبيراً بين ما تقوله، وما يزخر به الواقع المرير؟

فكر قليلاً ثم أجاب:

- حتى وإن وجد اختلاف بينهما، فإن ما سيوحدهما هو وعي هؤلاء العمال المضطهَدين بظروفهم الهزيلة التي يتخبطون فيها. إنني أريد منهم أن يعرفوا أن ميمون ومن ينتمي إلى طينته لن يتعاطفوا معهم يوماً، أو يفكروا في عدد ساعات العمل غير القانونية التي يقتطعونها من أجسادهم... لن يحسوا بهم يوما... لن يوفروا لهم التأمين الصحي والاجتماعي، ولن... ولن. إنهم مسحوقون دون أن يعرفوا كيف يعَبرون عن ذلك، لهذا لا مناص من أن

يعرفوا ويعوا مأزقهم، وبعده سيتعاطون مع واقعهم بناءً على درجة وعيهم به...

- حسنا قلت، بيد أن هذا الأمر يحتاج وقتاً، ولن يتم إلا عبر مسار طويل من التراكمات...

- لا تنسَ أن بداية الغيث قطرات.

فكر توفيق لحظات ثم قال:

- يبدو لي أنك نسيت أمرهم.

- أي أمر؟

- إن أغلبهم أميون...

- أعرف هذا، ولذلك سنتعامل معهم وفقاً لمستواهم.

- إذاً، هم لن يغيروا وضعهم الاجتماعي بناء على الأفكار، والتنظير دون الممارسة؟

- كلا، وألف كلا... هم سيغيرونه بأيديهم.

- ماذا تقصد يا أحمد؟ أتقصد الثو...

قاطعه قائلاً:

- نعم، الثورة ثم الثورة...

- أهذا هو السبيل الوحيد؟ سبيل الدم؟

- ما داموا أميين، فإن هذا السبيل سيكون أثمر وأجدى نفعاً... هم براكين تنتظر وقت الانفجار.

- لا يا أحمد، لن أتركك تقود العمال المساكين إلى حتفهم... لن يتم لك هذا الأمر الرهيب.

- إنهم ميتون منذ ركعوا لميمون، وخضعوا لأوامره الجائرة، لقد صاروا عبيداً له. هم ليسوا أحرارا، وثمنُ الحريةِ غالٍ يا رفيقي...

- المهم أنهم يعيشون حتى حين.

- إنني أؤثر الموت السريع على الموت البطيء...

- ولمَ لا نتفاوض معه؟

- هو لن يفاوض أبداً..

- ما الذي سيمنعه؟

- لأنه يرى في ذلك انتقاصا منه، ومن ثم، لن يرضى بالجلوس مع العمال على طاولة واحدة..

أطبق برهة: يفكر، يستدعي شيئاً من الذاكرة، ثم أردف:

- أوَلا تذكر ما قاله لنا أحد العمال قبل يومين؟

- نسيت ذلك، ما أصعب المصلحة العامة..

- قال إن ميمون قد منع العمال من الدخول من الباب الصغير.. إن أمره لعجيبٌ.

- إذاً، لا تفاوض؟

سأله متحسرا، فرد الآخر بحزم ورباطة جأش:

- لا تفاوض معناه لا بديل عن المقاومة..

بهذه الكلمات افترق الصديقان، فعاد كل منهما إلى عمله دون أن يضيف إلى ما قاله حرفاً أو حجة. دلف توفيق إلى القاعة، فظل لحظات ينظر إلى كريم نظرات شزراء، سرعان ما انقلبت إلى ابتسامة أردفها بالتلويح إليه من بعيد. أعطت تلك الابتسامة أكلها؛ إذ طفت على كريم ملامح الارتياح والطمأنينة. كان يعرف أنهما قد علما بكونه السارقَ، بيد أنه لم يفهم بعد السبب وراء صمتهما عن الوشاية به، لذلك بادل توفيق الابتسامة نفسها، لكن، مع أخذ الحذر منهما...

****

15

بدأت فاطمة تعمل منذ السادسة والنصف صباحاً. لذلك، ظلت تتحرك بخطوات وئيدة متثاقلة، وعلامات التعب بادية عليها، لم تكن لتشتكي من الأعباء الثقيلة. وفي كل لحظة، تتذكر أحمد وصاحب البيت الذي يطالبها بمبلغ الإيجارِ. وكلما فكرت في التوقف عن العمل، استحضرت صراخه ووعيده بطردها من بيته، لهذا ظلت متجلدة في مهمتها، وبين الفينة والأخرى تبتسم في وجه زبون طلب الحساب لعلها تذيب قلبه، أو تغريه كي يترك لها بضعة دراهم. وهكذا، استطاعت، بعد طول كد وجد، أن تجمع مبلغ الإيجار، فأزالت همّاً ثقيلاً كان يجثم على صدرها، فكان حال لسانها يقول:

- "هذا آخر يوم لي هنا، لن أعود إلى الاستغلال ما دمت قد وفرت السكن لمدة شهر آخر. سأبحث عن عمل مغاير يكون أقل تعباً وأكثر فائدة...".

ظلت تحدث نفسها وهي تائهة وسط المقهى المليء بالجالسين الذين لا تنتهي طلباتهم وشكواهم من مذاق القهوة، أو قلة السكر في الشاي...

بدأ أحمد بتنظيف القاعة الواسعة التي لم يستطِع الانتهاء منها هذا اليوم، ومرد ذلك إلى الموقف الذي أقره في نفسه بعد كلام صاحب المعمل. كان يقنع نفسه بأن مجهوده في العمل لا بد أن يكون على قدر أجره، على أساس أن

يقنع باقي العمال في قادم الأيام بهذه الحقيقة، وكلما سنحت له الفرصة لذلك.

قُرع الجرسُ، فانصرف العمال وهم يمشون الهوينى، حيث الازدحام والصخب يملآن المكان كله. لقد اتجه كل منهم إلى المراحيض حتى يغسل وجهه ورجليه، ويزيل الغبار من على عينيه اللتين صارتا مغبرتين. ومن ثم، انطلقوا تجاه القاعة الموجودة في الساحة حتى يغيروا ملابسهم جماعات.

غادر القاعة، ثم انتظر أحمد الذي كان يتحدث مع كريم:

- لقد أبليت بلاءً حسناً يا رفيقي، فهنيئاً لك...

استغرب هذا الكلام، فسأله دون تأخر:

- ما الذي فعلتُه حتى تقول ما قلته؟

- أنت ونحن نعرف، لقد فهمنا كل شيء.

صمت بضع ثوان ثم أردف:

- أنت لم تسرق، بل أخذت حقك.

تنفس الصعداء، ثم قال له بحذر:

- أفهم من كلامك أنك تشاطرني الرأي.

- نعم، يا كريم؛ فهؤلاء القوم لا يأبهون بنا، وإن نحن لم نأخذ حقنا بأيدينا، بل بالقوة إن تطلب الأمر ذلك، فإننا لن نحصل عليه أبداً.

- حسناً، إذاً، في المرة المقبلة سأدعوك لتأخذ حقك أيضاً...

قالها وهو يبدي رغبة جامحة في أن يوافق أحمد، بيد أن هذا الأخير سأله:

- وهل ستقوم بالأمر في ظل هذه الأجواء؟
- لا..لا، حتى تهدأ الأوضاع قليلاً، ويُنسى أمر السرقة، لكن...
- لكن ماذا؟ تحدث ولا تخف.
- لكن هذه المرة ستكون العملية كبيرة...

ابتسم أحمد ثم عقب:

- في قرارة نفسي، أرجو أن يأخذ الجميع حقه، خصوصاً أولئك الذين أفنوا زهرة عمرهم في هذا المعمل...

عاد توفيق إلى الساحة، وما أن رمقه أحمد حتى ابتسم ابتسام المعتذر عن تأخره، فبادله الآخر ابتسامة باردة باهتة شاحبة تنم عن كونه غير راض عما يخطط له. كان قد شرع في تنزيل خطته، وأول شيء قرره هو توعية العمال بوضعهم المأزوم، وبعد هذه الخطوة، سيأتي الفعل الذي يجعل الجميع سواسية في المعمل، كان يرى أن هذا الأخيرَ ملكٌ للجميع، وليس لواحد يستأثر به دون الآخرين، لذلك لم يكن لينظر في أمر صاحبه قط، وإنما كان همه الوحيد هو تدمير كل أرباب المعامل هناك حتى يتساوى العمال بهم، أي يتساوى من يملك مع من لا يملك إلا حرفته.

غادرا المعمل متجهين نحو الحافلة، لم يتحدثا في شؤون العمل وهما وسط الحشد الغفير من الركاب، بل تركا الأمر حتى وقت الاستراحة، أو لما يكونان وحيدين. وصلا إلى البيت وأزالا ملابسهما، فرن هاتف توفيق، كان

المتصل هو عمر، وقد طلب أحمد بصوت يشوبه الحزن والتوسل. تسلم الهاتف، ثم انطلق يحدثه باشتياق ورغبة في اللقاء بعد غياب طويل:

- "آلو" عمر، كيف حالك؟

- أنا بخير، وماذا عنك؟

- في أحسن حال، كيف تجري أمور العمل؟

- ليست بخير؛ لأنني توقفت اليوم...

- وما السبب؟ أحدث خطب ما؟

- هي أمور كثيرة وقعت، لكن، ليس هذا مقاما لسردها.

سكت قليلا ثم أردف:

- دعنا من هذا الآن، وأجبني: هل وجدت عملاً؟

- نعم، أنا أعمل منذ أسبوع مع توفيق...

- هذا خبر مفرح يا صديقي، لكن، ماذا تفعل؟

- أعمال ثانوية كأن أنظف قاعة ما، وأرتب أشياءها، حالياً، هذا ما أقوم به.

- المهم هو العمل، والأجر؟

- هو مبلغ هزيل يا صديقي.

أصدر تنهيدات طويلة، ثم أردف:

- وماذا ستفعل أنت؟

- لا أدري، ولكني سأبحث عن عمل آخر.

فكر لحظاتٍ طويلةً ثم قال:

- ما رأيك في أن أتحدث مع صاحب المعمل؟
- وهل سيوافق؟ إنني أستبعد هذا الأمر.
- لا عليك، غدا، مع الساعة الثانية عشرة والنصف سأخبرك بالنتيجة.
- حسناً، ولا تنسَ أني أود رؤيتكما مساءَ غدٍ.
- مرحباً بك في أي وقت شئت..

أنهى الاتصال، ثم فكر ثوان، فأخرج ورقة صغيرة من جيبه تضم رقم هاتف فاطمة. ابتعد قليلاً عن توفيق.. اتصل بها ولم تجب، فأعاد الكرة بعد أن بدأت سبل الحيرة تتشعب في نفسه. وفي الأخير، أجابت بصوتٍ مبحوحٍ:

- أحمد، هذا أنت... هل اشتريت هاتفاً؟
- ليس بعد، ولكني أتصل من هاتف توفيق صديقي..

ثم استرسل:

- هل دفعت مبلغَ الإيجارِ؟
- نعم...

قالتها وتنهيداتها تخترق سماعة الهاتف، وتُبلغ رسائلَ كثيرةً إليه، فلم يكن أمامه إلا أن قال:

- ربما سأراكِ غداً، طبعاً إن لم يكن لديك عمل في المساء...
- ليس لي عمل، لقد تركته...
- وهل وجدتِ بديلاً؟
- لم أجد بعد، بيد أنني سأبحث غداً...

تذكرَ أن ثمةَ نساءً كثيراتٍ يعملن في المعمل، لذلك لمعتْ في ذهنه فكرةُ البحثِ عن مكان لها بينهن، فكر كثيرا في صعوبة الأمر، بيد أنه ارتأى أن يسأل صاحب العمل لعلّ الأمر يلقى قَبُولاً عنده، لهذا سألها بهدوء:

- أتريدين العمل في الخياطة؟

ساد الصمت بينهما قبل أن ترد:

- ومن أين لي بذلك؟ أنا لا أفقه فيها كثيراً.

- هذا لا يهم، ولكن يمكنك أن تقومي بشيء ما، وبعد أيام ستتعلمين شيئاً فشيئاً.

- حسناً...

انقطع خط الاتصال، ثم استلقى في سريره وعيناه مركزتان في السقف الذي تآكلت صباغته، فصارت تسقط كلما تحركتْ هباتُ الرياحِ داخل الغرفةِ.

لم يعدا عشاء؛ لأنهما تناولا الطعام في الشارع قبل أن يدخلا، لهذا اكتفى كل منهما باحتساء كوب شاي ساخن، والتمدد في مضجعه، ووضع الغطاء على وجهه.

اكتسح الظلام الأرجاء، والسكان بدأت حركتهم تفتر، والزقاق بات شاغراً إلا من بعض المارة الذين يجوبونه لحاجة في نفوسهم. ساد الهدوء في المكان، إذ لا تُسمع إلا أصواتُ الحشرات الليلية، ونباح الكلاب، ومواء القطط التي تجعل من ينصت إليها في حيرة من أمره. لقد كانت أصواتُها شبيهةً بتوجع البشر، إنها أصواتٌ غريبةٌ، كأنها تبكي أو تبوح بسر ما أثقل كاهلها.

كان أحمد ينام على هذه الأصوات الغريبة، إذ كلما سمعها تألم؛ لأنه كان يتكهن أن لهذه القطط أسبابا ما، جعلتها تصدر هذا المواء بهذا الصوت الشجي الذي يُدخل حزناً وكآبةً على الذين يَسهرون الليالي الطويلة. لذلك، يظل مركزاً سمعه، ومحاولاً التكهنَ بأسباب هذا المواء، بحيث يستمر على هذه الحال حتى تملكَهُ عينُهُ وهو ممددٌ على سريره.

أُطفِئتِ الأضواءُ في الخارج، فنهضت من فراشها بعد محاولات فاشلة في النوم، كانت تتقلب في مضجعها كمن يتقلب على أحر من الجمر، ثم اتجهت نحو النافذة، فظلت وقتاً طويلاً مشدوهة إلى امرأة مسنة كانت تجلس دون حراك... تذكرت والدتها، واللحظات الأخيرة التي عاشتها مع المرض، وكيف كانت تحذرها من والدها، إذ توصيها بصوت خفيض متوجع:

- يا بنتي، إني اقتربت من الرحيل، بل إنني على مشارفه. ولا أخاف عليك من أحد أكثر مما أخاف من والدك... لا تنصتي إليه، ولئن أتى ثملاً، وطلب منك القيام بشيء مُشين، فلا تخضعي له أبداً ولو كلفك الأمرُ حياتَك...

فكانت تسألها والدموع الساخنة قد تهلَّلتْ من عينيها:

- أليس أبي يا أمي؟

فتجيبها بصوتٍ شجٍ خفيض، وعينين زائغتين:

- إن والدك يصير وحشاً ضارياً بعد أن يلعب الخمر برأسه، وقد يقترف أفعالاً شنيعة دون أن يخشى لومة لائم. احذري منه يا بنتي... احذري أرجوك.

تقلبت العجوز مجدداً، فكفكفت فاطمة دموعها بسرعة، ثم أغلقت النافذة، وأغمضت عينيها الباكيتين بعدما ارتمت على سريرها.

اشتد الوضع على توفيق، كان سعاله الشديد يخترق سكون الليل وظلمته، فاستيقظ أحمد مذعوراً، وقد طلب منه أن يمده بكوب ماء، وحبة من الدواء الذي يتناوله كلما بلغت حالُهُ المرضيةُ ذروتها. انطلق يفتش عن الدواء في سكون الليل، وسعال صديقه يزداد سوءاً. بيد أنه استطاع أن يصمد قليلاً، بعدما أجهد أحمد نفسه في العثور على الدواء، وفتح الباب حتى يجوب الهواء فضاء الغرفة.

وبعدما استقرت حالُه، خاطبه وعلامات الوجل تظهر على وجهه الذي تفصد عرقا:

- إن حالتك تزداد سوءاً، لا بد أن تزور الطبيب مجدداً.

- بسيطة، هي عاصفة هوجاء، وسرعان ما تنتهي.

- أرجو أن يكون الأمر كما تقول...

- نم يا أحمد، فالعمل ينتظرنا.

أطفأ الضوء، وترك الباب والنافذة مفتوحين، ثم تمدد في سريره بعدما هدأت حال صديقه. لحظاتٌ قليلةٌ وكان النومُ سيدَ الموقف...

****

16

تنفس الصبح بعدما اندثرت ظلمة الليل وسكونه، فبدأت الحركة تسود الأرجاء. استيقظ أحمد، فأيقظ صديقه لئلا يتأخرا عن العمل. أعدا الفطور بسرعة، ولم تمضِ إلا دقائقُ حتى التفا حول المائدة، وشرعا في تناول فطورهما دون أن ينطقا بكلمة.

ارتديا ملابسهما ثم أغلقا الباب وهما يشعان حيوية ونشاطاً، خلافاً لليومين المنصرمين. بعد أن بلغا الزقاق، رمقا الشابَّ الذي تخاصم مع زوج أخته. كان توفيق يراه منذ سنوات في الزقاق والشارع أحياناً، وفي المقهى أحياناً كثيرة. أما أحمد، فقد كانت هذه المرة الثانية التي يراه فيها، لذلك ركز نظره عليه حتى سمعَ الشابَ يردُ بصوت مرتفع:

- "ضاقتْ بكمُ المدينةُ ذرعاً أيها البدوُ الهمجُ الرعاعُ".

توترتْ ملامحُ أحمدَ، وأجمع قبضة يده، وما أن حاول العودة إلى الشاب حتى أمسكتْ يدُ توفيقَ كتفَهُ، فخاطبه بهدوء، قائلاً:

- لا تكترث إن أمثاله كثيرون هنا. لهذا، لا ينبغي أن نفتح لهمُ المجالَ.

رد أحمد وعيناه تتقدان غضباً:

- لكنه، شتمنا ونحن لم نظلمه؟

- ولو، تأكد أن صمتنا هذا سيجعله فاقدَ الأمل من جهتنا.

- لم أفهم.

- إذا صادفتَ مثلَ هذا النوع من الكائنات الممسوخة، فلا ترد عليه، وهذا سيجعله لا يلتفت إلى جهتك مرة أخرى.

ربتَ على كتفه، ثم أردف وابتسامة تعلو محياه:

- هيا بنا يا صديقي.

وصلا الشارعَ الرئيسَ، فانتظرا مجيء الحافلة مع المنتظرين. لم يمضِ إلا وقتٌ قصيرٌ حتى رآها قادمة، فركبا متوجهين نحو المعمل. كان الشارع مزدحماً بالسيارات والحافلات، وهذا ما يجعل السرعة شبه مستحيلة. لذلك، كانت الحافلة تسيرُ ببطء شديد، فيما كانت أعصابُ الركابِ قد بلغتْ ذروتَها؛ فهم متأخرون عن العمل، والحافلة لا يهمها هذا بقدر ما تحاول تفادي الاصطدام مع سيارة أو حافلة أخرى...

ساد الضجيج طوال المدة التي تفصل بين الحي الصناعي، والحي الذي يسكنانه. وما أن اقتربت من مكان الوصول حتى بدأ الجميع يستعد للنزول. ترجلا الحافلة وحاولا أن يشقا طريقهما بين الحشود التي تمشي الهوينى، وبعد بضع دقائق، كانا في المعمل وقد توجها نحو القاعة ليغيرا ملابسهما.

ملأتِ الشمسُ الأرجاءَ واشتد لهيبها، فكانت فاطمة تتقلب في فراشها كلما أحست بالأشعة على جسدها. لذلك، استيقظت، ثم قامت لتضع ثوباً على دفّتي النافذة، وعادت إلى التمدد على سريرها. كانت تنتظر الخبر الذي سيزفه إليها أحمد مساء، لكنها لم تكن لتعرف ما ستقوم به، ما دامت لا تفقه في

الخياطة شيئاً، كما أنها غير مؤهلة لشحن البضاعة. لهذا وذاك، تجدُها في مأزق لا تدري كيف ستنتشل نفسها منه.

كانت الأجواء في المعمل صاخبة، بحيث ترى الجميعَ دائباً في عمله... أتى ميمون مع العاشرة صباحاً، فانطلق يجول ويصول، محذراً العمال من الكسل، ومتوعداً من فعَلَ بالطرد... لقد أَلِفَ الجميعُ هذا الخطابَ المتكررَ الذي لم يمضِ يومٌ إلا وتفوه به.

ما أن سمع بقدومه حتى رمى ما بيديه، ثم نزل الدرج والتردد يعتري خطواته الوئيدة. اقترب منه ثم خاطبه بهدوء:

- سي ميمون، أريد أن أتحدث معك لو سمحت.

رد بغضب شديد:

- حتى أنت. لم تستقر في مكانك بعد، قل ما لديك.

تمتم بكلمات بالكاد خرجت:

- لقد سمعت أنكم تحتاجون إلى العمال...

قاطعه:

- نعم، وماذا بعد؟

- لدي صديقٌ يريد أن يعمل، وإن كنتم تحتاجون العاملات فإنني أعرفُ واحدةً.

حك مقدمة رأسه الصلعاء، ثم عقب:

- أحضرهما غداً. لكن، هل يفهمان في الخياطة؟

أجاب دون تروٍّ:

- لا.

- على كل حال، سنجد لهما ما يقومان به.

انفرجت ملامحه، فعاد إلى عمله مبدياً سروره وانشراحه. وبعد أن غادر ميمون المعمل، انصرف بحثاً عن توفيق حتى يستعير منه هاتفه.

دقائقُ معدودةٌ، وحصل عليه..اتصل بعمر فزف إليه الخبر، وأدخل الفرحة إلى نفسه لأنه لم يكن ينتظر هذا الأمر. أما فاطمة، فإنها قفزت من مكانها من شدة الفرح...

عاد إلى عمله بعدما انتهى وقت الاستراحة، بيد أنه لم يعمل بالحيوية التي كان عليها من ذي قبل، وإنما فترت همته. كان يحدث العمال على انفراد، ويحاول توعيتهم وتحسيسهم بوضعيتهم. لقد تجشم عناء هذه المهمة التي لم يكن يعرف نتائجها، لكنه وطن نفسه عليها. فساعده على ذلك كريم الذي بدأ هو الآخر يشحذ نفوسهم، فكانوا يرحبون بالفكرة.

مرتِ الساعاتُ الأخيرةُ بطيئةً في المعمل، فكان أحمد يراقب الساعة كل خمس دقائق، لكن الوقت لم يطاوعه هذا اليوم، لذلك ارتأى أن يسرق لحظات حتى يتمم فيها حديثه مع العمال على انفراد لعلّه يبين لهم الصورة الحقيقية لأوضاعهم. وهذا ما قام به بكل تفانٍ؛ إذ تراه يتجول بين الصفوف، وكلما بلغ عاملاً ما، انحنى أمامه ثم شرح له مراعياً مستواه المعرفي.

في هذه الأثناء، كان توفيق يرصده بعين ثاقبة رافضة، لكنه لم يستطِع منعه؛ كان يتحدث ولعابه يتطاير، وفي أحيان كثيرة، يتمم المهمة بحركات يديه التي لا تفتر، لقد كان يظهر كل الاهتمام بوضع العمال، لذلك وثق فيه هؤلاء دون أن يبدوا أي اعتراض.

كان كريم معجباً بالدم الخفيف الثائر الذي يجري في عروق أحمد، ويعرف أنه خلق لهذه المهمة الكبيرة، إنه يرى فيه المنقذ من الظلم والجور، بل يراه مهديهمُ المنتظرَ الذي سيملأ المعمل عدلاً بعدما مُلِئ جوراً، لذلك أحس الجميع بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وأنهم مطالبون بدعمه لأنه لا يألو جهداً في سبيل توعيتهم بحقوقهم المهضومة.

انتهى وقت العمل، فاجتمع العمال فيما بينهم، كانوا يتداولون خطاب أحمد ويتدارسونه. وبعد بضعِ دقائقَ، بدأوا بالانصراف واحداً تلو الآخر لئلا يشعروا البوابَ بشيء حتى لا يشي بهم.

ارتدى ملابسه بسرعة ثم ألح على صديقه بأن يسرع؛ لأن عمر ينتظرهما. لهذا، غادرا المكان وهما يهرولان تجاه الحافلة. مر نصف ساعة، فكانا واقفين أمام مقهى البساتين، أخرج توفيق هاتفه، ثم اتصل بعمر. كان هذا الأخير جالساً في المقهى منذ ساعة وحقيبته على جانبه الأيسر. دلفا إلى المكان، ثم توقفا بضعَ ثوانٍ يمعنان النظر في الجالسين.. رمقهُ توفيقُ في آخر المقهى حيث يجلس وعلامات السَأم والضجر تعلو سحنة وجهه دون أن يستطيع

إخفاءها. اقتربا منه، ثم صافحاه وجلسا حول الطاولة الدائرية التي تحوي إبريقَ شاي، وقنينةَ ماءٍ صغيرةً.

لقد بدا وجهه شاحباً واجماً، وشعره متشعثاً مغبراً، ويداه متصلبتين، وكفاهما مجروحين.. ظل توفيق يتفحص هذا الجسد النحيف الذي اختلف كثيراً عما كان عليه قبل شهر، فباشره قائلاً:

- كيف مرت الأيام رفقة العم؟

- بئيسة وكئيبة...

قالها وعيناه تنظران إلى قدميه، فانطلق أحمد يحدثه وقد ألح في السؤال:

- ماذا حدث يا صديقي؟

أطبق لحظات ثم قال:

- لم يعجبني العمل هناك، وأنا لم أعد قادراً على التعب والاستغلال.

شرب جرعة ماء، ثم أردف وقد مرر يده فوق شفتيه:

- إن عمي الذي عرفته في البيت لم يكن هو نفسه الذي اكتشفته في المعمل، لقد كانت له شخصيتان مختلفتان: فهو في البيت يغمرني باهتمامه ورعايته، لكنه في العمل يتغير كلياً...

- إذاً، عمك حربائي؟

قالها أحمد وهو يضرب كفا بكف، فأجاب عمر دون تريث:

- لقد أيقنت أن ذلك النعيم والترف اللذين يرتع فيهما مصدرهما الاستغلال، إن ثروته قامت على أكتاف العمال، وما يحتسيه من عرق جبينهم...

لم يستطِع تتمة الكلام؛ لأنه رمق علامات الغضب على وجهي صديقيه، لهذا، اكتفى بالصمت برهة، ثم استرسل:

- إنني أفكر في الغد، وفيما إذا كان ميمون من طينة عمي...

ابتسم توفيق، ثم رد معقباً:

- اسأل أحمد، فإنه بات يعرف كل صغيرة وكبيرة في المعمل، حتى حياة العمال وظروفهم الاجتماعية يعرفها.

- أهذا صحيح يا صديقي؟

تلفظ بها عمر وهو يوجه نظره صوب أحمد، بيد أن هذا الأخير اكتفى بالقول:

- قريباً جداً سيأخذ العمال حقوقهم...

استغرب عمرُ الأمرَ فصمت دقيقة، ثم نطق بصوتٍ هادئٍ:

- هذا ما يجب أن يكون؛ لأن الواقع لا يرحم الضعفاء...

في هذه الأثناء، كان الظلام قد غمر الأرجاء، فقرر الأصدقاء العودة إلى البيت حتى يعدوا العشاء. دفع كل منهم ثمن مشروبه، ثم انصرفوا متوجهين نحو الشارع الرئيس حيث تمر الحافلة التي تأتي من الحي الصناعي. وفي انتظارها، جرى حوار طويل بينهم، إذ كان عمر يردد:

- هذه المدينة ليست لنا، ونحن لسنا أهلها...

عقب أحمد على كلامه بنبرة غضب شديد:

- كلا، وألف كلا، المدينة تتسع للجميع.

- لكن العيش فيها ليس سهلاً.

- هذا مفروغ منه، بيد أن الأهم هو أن يحاول المرء ...

تدخل توفيق الذي كان يعارض فكرة التغيير الجذري:

- الأمر يحتاج أناسا لهم صفاتٌ تؤهلهم ليقودوا الآخرين.

أثار هذا الكلام حفيظة أحمد، لذا، قال غاضباً:

- تقصد أننا لم نخلق لنغير أوضاعنا؟ أتريد من الناس أن ينتظروا شخصاً غائباً يأتي في أخر الزمان؟

- ولم لا؟ فلننتظر قليلاً حتى تتضح الصورة، ونعرف من يقف صامداً، ومن يكتفي بالثرثرة.

- رغم كل هذا، لا بد أن نتوسم فيهم خيراً، وأن نحترق كي نضيء لهم الطريق.

لزموا الصمت بعد قدوم الحافلة، فركبوا متوجهين نحو البيت والصمت قد جثم على ألسنتهم، فيما كان باقي الركاب يتحدثون بأصوات صاخبة، ومن ثم قد لا يسمع الركابُ كلامَ بعضهم البعض، بيد أنهم يتظاهرون بذلك؛ كأن يهز أحدهم رأسه مشيراً إلى الموافقة على كلام صديقه رغم أنه لم يسمعه قط.

انزوى أحمد في مؤخرة الحافلة، فانطلق يجيل بصره في وجوه الناس الذين يصعدون وينزلون. وعلى حين غرة، رمق شخصاً من الذين كانوا يفضون النزاع يوم ذهب إلى البحر، فتذكر هاتفه. كان هذا الشخص يدفع الناس يميناً وشمالاً حتى تفرغ الطريق أمامه. وبعد لحظات قصيرة، بلغ مؤخرة الحافلة، إلا أنه لم يرَ أحمد الذي بدأ يتفصد عرقاً، وأمارات الوثوب تشع من عينيه.

اقتربت الحافلة من الوصول إلى حيث سينزل الأصدقاء، وفي هذه المدة القصيرة المتبقية، انقض على الشاب مشددا الخناق على عنقه، وصارخاً ملء حنجرته:

- "شفار...شفار".

التفت صديقاه نحوه، أما الركاب الآخرون، فقد كان منهم من جمع قبضة يده، ثم انطلق يضرب وجه الشاب وبطنه، ومنهم من صفعه صفعات تركت آثارها على وجهه حتى بدأ الدمُ يخرج من فمه وأنفه. لم يُبدِ الشابُّ مقاومة، وإنما كان يحاول أن يغطي وجهه لكيلا تطاله اللكمات.

تقدم عمر بضع خطوات تجاهه، ثم أدخل يده في جيب الشاب، فألفى ورقة نقدية قيمتها مائتا درهم، وهاتفاً كبيراً. في المحطة ما قبل الأخيرة، توقفت الحافلة لثوان معدودة، فأمسك توفيق الشاب من عنقه، ثم دفعه خارجها. ثم تحركت كأن شيئاً لم يكن، لكن الركاب كانوا ينظرون إليهم نظرات كلها استفهام واستفسار، لقد كانوا مستغربين من الأشياء التي أخذها

الأصدقاءُ من جيبه، لكنهم اطمأنوا بعدما حكى لهم أحمدُ القصةَ كلَّها، فتأسف بعضهم كثيراً لكونه لم يسهم في تلقينه درساً حتى يكون عبرة للآخرين.

وصلت الحافلة إلى المحطة التي سينزل فيها الأصدقاء، فبدا المكان مكتظاً؛ لأن نسبة كبيرة من الركاب ترجلت بشكلٍ متتالٍ.. اتجهوا صوب الزقاق، فتوقف توفيق عند البقال، أما الآخران، فإنهما ذهبا إلى البيت. دلفا إلى الغرفة، ثم أزالا ملابسهما، وانصرف الواحد منهما بعد الآخر إلى الحمام.

استلقى عمر على سرير أحمد، وهذا الأخير على سرير توفيق، ثم بادره عمر قائلاً:

- من خلال ما سمعته، يبدو أن الأجواء مضطربة في المعمل.

- أكيد، العمال هناك مضطهدون يا صديقي...

- هذا شيء مرتقب، لكنهم لم يفكروا يوماً في تغيير الوضع.

- سيفكرون عاجلاً أو آجلاً؛ لأن الليل مهما طال، فلا بد للفجر أن يرتسم في الأفق.

- هذا ما نرجوه...

بهذه الكلمات أنهى عمر الحديث، ونهض متجهاً صوب النافذة، فلمح توفيقَ وقدِ اِلْتَأَى في المشي كمن بلغ من الكبر عتيّا، وأطفالاً صغاراً يجوبون الزقاق ذهاباً وإياباً، وبعد لحظات، استلقى على السرير مجدداً.

دلف توفيق إلى الغرفة وهو يرحب بعمر، فيما كان أحمد منشغلاً بإعداد الطعام. مرت دقائق معدودة، فكان العشاء فوق النار، والأصدقاء يتناقشون في قضايا اجتماعية، تخص العمال، إذ كان عمر يؤكد أن:

- جميع العمال في الوطن كله يعانون الظروف الهشة نفسها، ويتجرعون الويلات عينها.

فيما كان أحمد يعقب وقد اتقدتْ عيناه:

- صحيح، لهذا لا بد من توعيتهم حتى يروا الأمور على حقيقتها.

قال توفيق بحسرة:

- "اتفق العرب ألا يتفقوا".

- ماذا تقصد؟

سأله أحمدُ وقد اتسعتْ عيناهُ، فأجاب الآخرُ بحدة:

- لن يتفق عمال المغرب أبداً، بل إن اتفاق عمال المعمل الواحد على رأي واحد أمرٌ مستبعدٌ.

- لكن، لا بد من البداية هنا، وبعده ستنتقل الشرارة إلى الجميع.

- إنك تحلم يا أحمد...

- ولمَ أحلم؟

- كنت دوما أتساءل عن أسباب فشل الإضرابات في البلاد، فعلمت، أخيراً، أن الاتفاق بين شريحة اجتماعية واحدة، لها نفس الظروف والأوضاع أمر صعب.

أطبق بضع ثوان، ثم أردف وهو يضرب كفا بكف:

- نسبة كبيرة من العمال تعاني الأمية، فما دام الأساتذة، مثلاً، الذين يُنتظر منهم أن يتمتعوا بمنسوب وعي مرتفع، غيرَ متفقين على كلمة سواء، وهذا بادٍ من المعارك التي يخوضونها، والتي لا تبوء إلا بالفشل الذريع، فإن الاتفاق بين العمال غايةٌ لا تدرك...

لم يلقَ هذا الكلام قَبولاً لدى أحمد؛ لأنه كان ينصت وهو سادرٌ حائرٌ. وبعد لحظات، طفق يدافع عن فكرته بكل ما أوتي من قوة:

- ليس المهم أن نتفق على كلمة واحدة، وفعل واحد ما دام لكل منا وجهة نظره، فالتحرك يتوقف على أشخاص معدودين، ولئن تمكنوا من إشعال النار في نفوس الآخرين، فإنهم سيكونون ناجحين.

توقف الحوار بينهما هنا، لينطلق مجدداً بين عمر وتوفيق، لكن، في مواضيع المدن المغربية المهمشة. وفي هذه الأثناء، كان أحمد يطل من النافذة على الزقاق، وفي يده اليسرى كوب شاي، وسيجارة مشتعلة في يده الأخرى. لقد عادت به الذاكرة إلى البلدة، حيث تذكر والدته التي كانت تتلقى القهر والإذلال من قبل والده، كانت تحدثه والدموع تترقرق من عينيها:

- يا أحمد، إياك أن تحزن مما يصيبني؛ فهذا قدري. لكنني أوصيك بالاعتناء بأخيك وأختك... ولئن وجدت مكاناً آخر بعيداً عن البلدة، فلا تتردد في الرحيل صوبه.

لم يكن ليستطيع إيقاف دموعه، لذا يعقب بصوت كله نحيب:

- إلى متى يا أمي؟ هذا الضرب العنيف يذيب جسدك يوماً بعد يوم، لا بد لك من رفض هذا الوضع الذي يدمع العين...

- لا قبل لي بهذا يا ولدي، لكن، اصبر واحتسب.

رمقه عمر وهو يكفكف الدموع من عينيه، فقام متجهاً نحوه، ثم اتكأ على الجهة اليسرى من أحمد، وأخذ يربت على كتفه وهو يردد:

- اصبر يا صديقي، اصبر فإن الأيام تخبئ لك غداً مغايراً لما عشته وتعيشه...

ثم نظر إلى توفيق نظرات تودد، وأخذ يد أحمد التي ضغط عليها مرات حتى خاطبهما توفيق:

- حسبكما بكاء، هل أنتما نساء؟

لم يجيرا جواباً، وإنما اكتفيا بالجلوس حول المائدة، حيث لم تمضِ إلا دقائق قليلة حتى انغمس الجميع في الأكل دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة. لقد كانوا يتضورون جوعاً، لذلك، لم يدخلوا في حديث آخر، وإنما أكلوا ثم قصد أحمد سريره، وافترش توفيق لعمر فراشاً في الأرض، وما هي إلا دقائق حتى ساد الظلام والسكون الغرفة، فيما أُطفِئت أضواء الشوارع، ودخل الجميع مأواه إلا المتسكعون، ومنْ لهم وظيفة ليلية، وبعض القطط والكلاب...

****

17

رحل آذار بشتائه وبرده القارس، وأقبل نيسان فأقبلت معه الحرارة التي تظهر وتختفي. لقد كانت لنيسان أجواء مختلفة: فالأرض اخضرت وربت، والزهور تفتقت، ورائحتها ملأت الأرجاء، والأشجار نمت وسمقت، والناس مُلِئوا بهجة وسروراً. لقد كان الربيع إيذاناً بميلاد جديد بعد موتٍ هادئٍ. إنه رمز للبعث والتجدد، والحياة، والميلاد، والانبثاق، والعطاء والاستمرار في الزمان والمكان.

كان الصباح عطراً بهيجاً، والشمس ساطعة ساخنة، والشوارع والأزقة مليئة بالحركة والصخب. في هذه الأجواء الصباحية، استيقظ وهو يتثاءب، فرتب فراشه للمرة الأولى منذ وصل المدينة، ثم أيقظ توفيق وعمر، فاستيقظا متثاقلين؛ لأنهما كان يغطان في نومٍ عميق. خاطبهما بصوت جهوري:

- موعدنا المعمل...

يستفسره توفيق وعيناه مطبقتان:

- ألن تنتظرنا؟

- لا؛ لأني سأذهب عند فاطمة حتى آخذها معي.

تفتحت عيناه فجأة، ثم تحدث بنبرة استغراب:

- فاطمة؟

ابتسم وعقب بهدوء:

- نعم.. فاطمة، سأحكي لك القصة بعد حين.

- أهي صديقة؟

- نعم، أيها الفضولي.

قالها أحمد وقد تلألأ وجهه حماساً، فانصرف مسرعاً متجهاً نحو الحي الذي تقطنه فاطمة، كانت هذه الأخيرة قد استيقظت بعد لَأْيٍ، ومن ثم، انطلقت ترتدي ملابسها. كان ينظر إليها وهي متسمرة أمام دولابها الخشبي حائرة، فخاطبها وهو يدخن سيجارته على مهل:

- أسترتدين فستاناً؟

أجابت بصوتٍ ينم عن الحيرة التي تعتمل في نفسها:

- ربما...

- لا، يا فاطمة، إنك مقبلة على العمل في معمل للخياطة وليس في إدارة. ارتدي جلبابك وأسرعي، فإننا تأخرنا.

توقفت لحظات تنظر إليه كمن يتفحص ملامح وجهه الشاحب، ثم انطلقت ترتدي الجلباب البني اللون، وتغطي شعرها بقطعة ثوب أزرق، مستطيلة الشكل.

وما أن هَمّا بالمغادرة حتى بدأت تتقيأ، فاضطر إلى الانتظار في الغرفة، فكر في سبب هذا القيء المفاجئ. كان يفكر، باهتمام بالغ، فيما قد يترتب عليه من تأثير على حالها الصحية فيما سيأتي من الأيام، لكنه تظاهر بأنه في حاله

الاعتيادية، ثم استفسرها حول ما إذا كانت تتقيأ بشكل متكرر، أم أن الأمر مجرد حدث عابر...

بعد أن أعدت نفسها للعمل، غادرا الغرفة مسرعين، ومتجهين حيث سينتظران قدوم الحافلة التي عادة ما تأتي متأخرة. وفي لحظة انتظارهما، كان توفيق وعمر قد توجها إلى المعمل.

وصلا في السابعة والنصف صباحاً، فألفيا عمر وتوفيق واقفين في الساحة كأنهما ينتظرانهما. توجه توفيق وأحمد صوب القاعة حتى يغيرا ملابسهما، لكن قبل الانصراف، نظر إليهما أحمد، ثم قال:

- انتظرا هنا حتى يأتي رب المعمل، فيدلكما على ما ستقومان به...

حركا رأسيهما دلالة على الموافقة، فمكثا ينتظران وأسهم الحيرة تخترق نفسيهما؛ لأنهما لم يكونا متأكدين من هذا العمل، وقد ازداد قلقهما حينما لمحا العمال يدخلون من الباب الكبير وهم يمشون بخطوات وئيدة، كأنهم مأخوذون إلى المقصلة.

اتجه أحمد إلى قاعة واسعة الأرجاء، توجد أسفل المعمل. كانت مظلمة، وهذا ما جعله يبحث عن مفاتيح الإنارة... بعد لحظات من البحث، تمكن من إنارة الفضاء، فانطلق يرتب العلب الكرتونية الممتلئة بالملابس المختلفة الأنواع والأشكال والألوان. كان بعض العلب متداعياً مبتلاً بفعل الأمطار التي تتسرب إلى القاعة من الساحة الخارجية. وما دام المكان واطئاً، فإن الماء لا يجد ملاذاً سوى الانجرافِ تجاهه. كان يحملُ العلبَ المتداعيةَ بتؤدة،

ثم يضعها فوق قطع خشبية تبلغ ثلاثة أمتار طولاً، وعشرين سنتيمتراً عرضاً، ووظيفتها هي حماية العلب من الفساد، إما بفعل المياه، وإما الجرذان التي ترتع في فضاء المعمل كله.

أما توفيق، فإنه قصد مكانه، فشغل آلته، ثم انصهر في العمل دون أن يلتفت يميناً أو شمالاً مثل الجميع؛ لأنهم بمجرد ما يدخلون فضاء الخياطة، ينصهرون في العمل الدؤوب، فهمْ يعرفون أن رب العمل يأتي في الصباح. وهذا الأخير يعد بداية يوم العمل حيث العمال يشعون حيوية وإقبالاً على العمل بتفانٍ، والعطاء والإنتاج أكثر. ففي الصباح، يكون مزاجهم حيوياً، أما في المساء، فإن النشاط يفتر، بحيث لا يفكرون إلا في ساعة الخروج، والعودة إلى المنزل طلباً للراحة.

رمق عمر البوابَ يفتح الباب الصغير بحركات سريعة، وبعد ثوان، دخل ميمون الذي تعرفا عليه من الانحناء الذي قام به البواب، محاولاً تقبيل يده، فيما رفعها الآخر بسرعة خاطفة.

رفع بصره نحوهما، ثم خاطبهما بحزم:

- هل أنتما عاملان جديدان؟

رد عمر:

- نعم..

- حسنا، أنت اذهب للعمل رفقة أحمد، وأنت اتبعيني...

توجه عمر نحو القاعة السفلى، فيما كانت فاطمة تسير خلف ميمون بخطوات متثاقلة، وبين الفينة والأخرى، يلتفت نحوها مبدياً ابتسامة ماكرة، فيما كانت هي الأخرى تبادله الفعل نفسه.. ولما بلغا القاعة التي يعمل فيها توفيق، وثلة من العمال تضم رجالاً ونساءً، سألها بصوتٍ هادئ:

- هل تعرفين القراءة والكتابة؟

ردت دون تروٍّ:

- نعم.

- إذاً، سيكون عملك هنا، والمطلوب منك هو حساب عدد القطع التي خاطها كل واحد، وتسجيل العدد في الورقة الصغيرة التي توجد على جانبه الأيسر.

- حسناً.

استغرب الجميع هذه الطيبوبة التي لم تكن معهودة على رب العمل، لذلك كانوا يلتفتون إلى بعضهم البعض وملامح التعجب والاستغراب تسيطر عليهم.

كان عمر يحمل العلب بحذر كمن يحمل زجاجاً أو قطعة أثرية عظيمة القيمة، ولما رمقه أحمد، ابتسم في وجهه معرباً عن انشراحه من العمل سوياً في المكان نفسه. ولم تمضِ إلا دقائقُ حتى كان ميمون ماثلاً أمامهما، ثم انطلق يردد:

- لقد أبليتما بلاءً حسناً.

ابتسما في وجهه، ثم انصرف إلى القاعة التي تعمل فيها فاطمة، فاتخذ له ركنا حيث ينظر إليها، ويتأمل تضاريس جسدها الذي يتحرك حركات مثيرة، وكلما انحنت لتعد القطع التصق ثوبها عليه، ليظهر ردفها المتماسك كهضبتين، وباقي نتوءات جسدها الفاتن.

اقترب منها بضع خطوات، ثم نظر إلى الطريقة التي تكتب بها، فلم يشعر حتى ألفى نفسه يقترب منها، ثم أمسك القلم من يدها بعدما ضغط على أصابعها بطريقة سريعة، وانطلق يحدثها عن كيفية الكتابة والابتسامة لا تفارق محياه.

لم يكنِ الآخرون أغبياءَ حتى يغفلوا عن هذه الحركات، وإنما كانوا يرصدونه خفية، ويحللون كل حركة في خلدهم، لكنهم كانوا مختلفين في التفسيرات، فيما يتفقون على كون ربّ العمل قد اعتراه تغييرٌ كبيرٌ هذا اليوم.

رنَّ الجرسُ فانصرف العمال للغداء. كان أحمد سعيداً بوجود عمر وفاطمة في المعمل بعدما كان رفقة توفيق وحده، بيد أن هذا الأخير كان واجمَ الوجه، وهذا ما لفت انتباه أحمد، فسأله بملامح بريئة:

- ماذا هناك يا رجل؟

تريث قليلاً قبل أن يجيبَ:

- لا أدري من أين سأبدأ.

توترت ملامح أحمد، فتوسل إليه بالكلام:

- لقد راعني هذا الكلام، تحدث..

- تغيرت تصرفات رب العمل حين رأى فاطمة، و...

قالها دفعة واحدة كأنه يرمي عبئاً ثقيلاً، وقبل أن يتمم كلامه قاطعه الآخر:

- ماذا تقصد؟

- يبدو أنه معجبٌ بها..

تجهم وجهه، فنظر إليهما من بعيد نظرات مليئة بخيبة الأمل.. انصرفوا للغداء كأن شيئاً لم يحدث، لكن بعد عودتهم، كان ينوي فتح نقاش حول الأمر معها، إلا أن صديقيه حذراه من ذلك ما دامت الأمور لم تتضح بعد. لقد كانت سعيدة بهذا العمل، بيد أن الآخرين واجمون؛ لأنهم يتوقعون نهاية بئيسة.

عاد الجميع بعد انقضاء فترة الاستراحة، فانطلق كل منهم لإنجاز مهمته. لم يذهب صاحب العمل ذلك اليوم، وإنما ظل في معمله، فكان يمعن النظر في كل عامل على حدة. أما العاملات، فإنه قد تعرف عليهن عن قرب، لهذا لم يلتفت إليهن، وإن حدث وسألته إحداهن عن شيء يخص العمل، عرض بجانبيه عنها، ثم خاطبها دون النظر إلى وجهها.

مرت ساعات ظل فيها أحمد يكتوي بنار الغيرة؛ بحيث لم يعمل كما كان في السابق، بل ظل غارقاً في التفكير. لقد كانت الوساوس تخامر نفسه، وكلما مرت لحظة، ازداد غضبه، ويداه ترتعشان كمن يخطط لاقتراف جريمة شنعاء. فلما انتهى وقت العمل ذلك اليوم، كانوا ينتظرونها في الساحة

الواسعة، لكنها تأخرت بضع دقائق. كان أحمد يحترق بنار الحيرة والتكهن بما سيحدث، إذ لم تمر إلا دقائق حتى خرجت، فانطلق يحدثها بصوتٍ ينم عن عتاب رقيق:

- تأخرت..

ترد وقد رفعت شعراتها المبعثرة على وجهها:

- لم أنهِ حساب الملابس، لهذا تأخرت.

- نغادر؟

قالها وهو يجيل بصره في الوجوه الواجمة أمامه، ففاجأه صوتُ ميمون الذي اخترقَ لحظةَ الصمت التي خيمت عليهم:

- فلتغادروا أنتم. أما هي، فإنني سآخذها إلى حيث تقطن..

بدأ وجه أحمد يتفصد عرقاً، وارتعشت يداه. أما الآخران، فقد بدت عليهما علامات القلق. كان أحمد يحاول التظاهر برباطة الجأش، بيد أنه فشل في ذلك بعد محاولات كثيرة.

أمام هذا المشهد المتشنج، طلب توفيق من صديقيه المغادرة، فاتجهوا صوب الشارع الرئيس الذي كان مليئاً بالعمال الذين تعالت أصواتهم، إذ كانوا ينتظرون الحافلة بفارغ الصبر. لم تمضِ إلا دقيقتان حتى ظهرت أمامهم، فامتطوها مسرعين، وما أن تحركت حتى أسند أحمد رأسه على زجاجها، حيث ظل ينظر نظرات شرود. كان يحدث نفسه في صمت:

- "لقد سرقها مني العجوز بماله، لكن، هل المال يشتري الإنسان؟ مشاعره وأحاسيسه؟ كرامته؟ سأزيحه من طريقي، لكن، كيف؟".

في اللحظة التي كان شارداً، رمقه صديقاه وهما يتأسفان عما آلت إليه الأمور، لكنهما قررا الانتظار حتى النهاية لعلّ تكهناتهما تكون في غير محلها.

رفع رأسه فجأة، ثم ركز نظره في الشارع بعدما رمق سيارة رب العمل وهي تحاول تجاوز الحافلة من الجهة الأخرى، فازداد وجهه سواداً، وعضَّ على شفته السفلى محاولاً كبح جماح غضبه. كانت فاطمة تبتسم، لكنه كان يريد إجهاضَ تلك الابتسامةِ التي جعلتْ مُهْجَتَهُ تتحرّقُ.

ترجل الأصدقاء الحافلة متوجهين نحو البيت. وعلى حين غرة، تسلل منهما أحمد، فاتجه صوب الحديقة بعدما أخرج سيجارة من جيبه. وحين بلغها، رمق كرسياً إسمنتياً فارغاً، فاتجه نحوه ثم جلس وهو سادرٌ في الفضاء. كان كل همه هو القضاء على هذه العلاقة التي بدأت ملامحها ترتسم في الأفق القريب. لكنه، فجأة، مرّغ سيجارته في التراب، ثم انصرف صوب البيت. وبعد وصوله بثوانٍ، أزال ملابسه، ثم تمدد في سريره دون أن ينبس ببنت شفة. نظر إليه صديقاه طويلا، فقررا عدم الحديث معه ما دام في هذه الحال التي جعلت منه قنبلة موقوتة قد تنفجر في وجهيهما إن تحدثا، لهذا، كان الصمت المطبق سيد الموقف...

دقائق معدودة، فكان الجميع يغط في نوم عميق؛ لأنهم لم يعدوا عشاءهم هذه الليلة، وإنما آثروا النوم على الأكل.. فما دام الجسد متعباً، فإن الأكل يغدو شيئاً ثانوياً، لهذا لم يكونوا ليشغلوا أنفسهم بالعشاء.

كانت الأجواء هادئة في الخارج، والحشرات تعم المكان كله...

****

18

أشرقت شمسُ الصباحِ خجولةً، فكانت الأجواء مختلفة عن أيام آذار: فبعدما كان البرد قارساً، صار، الآن، معتدلاً، لذلك استغنى النائمون عن الأغطية. استيقظ عمر بعد نوم عميق، فغادر مضجعه بتؤدة، ثم أيقظ صديقيه.

ما أن بلغت الساعة السابعة صباحاً حتى كان الجميع مستعداً لمغادرة الغرفة. لم يذهب أحمد عند فاطمة هذا الصباح، وإنما اكتفى بمصاحبة صديقيه إلى حيث سيمتطون الحافلة، إذ لم تمر إلا دقيقتان حتى كانت ماثلة أمامهم، فصعدوا وهم غارقون في صمت طويل.

كان ينظر إليهما نظرات ملأى بالحزن والأسى، فتساءل مع نفسه إن كان يحبها دون أن يدري، أم أن رياح الغيرة عصفت بنفسه. ففي كثير من الأحيان، لا يعرف المرء إن كان يحب شخصاً أم لا، بيد أن وجوده مع غيره قمين بأن يضعه في محك عسير، إنه الاختبار الذي يقيس من خلاله درجة تعلقه بهذا الشخص.. كان يحس إحساساً غريباً تجاهها، لكن هذا الإحساس تضاعفت درجته حتى بلغ ذروته حين رآها رفقة رب العمل.

لما بلغوا محطة النزول، ترجلوا الحافلة الواحد تلو الآخر بخطوات وئيدة، تنم عن التعب الذي أرهق أجسادهم العليلة. اتجه أحمد صوب بائع سجائر، فابتاع منه اثنتين، ثم أشعل إحداهما ووضع الأخرى في جيبه، وتوجه نحو

المعمل وهو لا يبالي بشيء. وما أن دخل حتى لمح صديقيه ينتظرانه في الساحة وقد غيرا ملابسهما. مر أمامهما بخطواته البطيئة الهادئة، متوجها نحو القاعة حتى يغير ملابسه.

سمع عمر وتوفيق صوت الباب وهو يفتح، فالتفتا نحوه بفضول بالغ.. رمقا فاطمة التي دخلت ثم تبعها رب العمل، فنظرت إليهما نظرة شزراء، كأنها أحست برصدهما لحركاتها وسكناتها، لكنها لم تحر لهما جواباً، لذلك دخلت المعمل وأنفها شامخ، ومشيتها متبخترة..

خرج أحمد بعدما ارتدى ملابسه، ثم طلب من عمر الانصراف إلى حيث يشتغلان.. انصرف توفيق إلى عمله بعدما نظر طويلاً إلى أحمد، بحيث ظل يتصفح ملامح وجهه، فيما أشاح عنه، ثم توجه إلى حيث القاعة السفلى.

شرعا في العمل، لكن، لم تمضِ إلا دقائق حتى ألفيَا رب العمل ماثلاً قبالتهما، حيث قال:

- ستعملان في القاعة الثانية، ستجمعان الأزبال..

اِسودَ وجه أحمد، فجمع قبضة يده، بيد أن عمر ضغط عليها ثم عقب، وابتسامة مصطنعة تعلو محياه:

- حسناً..

توجها نحو القاعة الثانية حيث تعمل فاطمة وتوفيق، فدلفا وعيناهما تجولان في الوجوه الكئيبة التي ترمقهما خلسة.. وضعا مكنستيهما على

الأرض، ثم أخذ كل منهما كيساً بلاستيكياً كبيراً، وانطلقا يجمعان بقايا الثوب المتداعية، والخيوط التي لم تعد تجدي نفعاً.

كانت ترمق أحمد خفية، وما أن يرفع نظره تجاهها حتى تشيح بوجهها بسرعة، وقد تصادف أن رفعا نظريهما في لحظة واحدة، فتركزت العيون في بعضها مدة ثوان إلى أن باغتهما رب العمل، فانطلق يخاطبها ويحذرها:

- لقد تهاونت قليلاً هذا الصباح، هل لا تزالين متعبة؟

ردت وعيناها تدوران في جمجمتها:

- متعبة قليلاً..

- لا عليك.

التفت إلى أحمد، ثم أردف بعدما علت ابتسامة وجهه:

- سآخذكِ إلى مكان آخر هذا اليوم..

قال هذه الكلمات، وعيناه ما زالتا مشدودتين إلى أحمد، فكان هذا الأخير يتفصد عرقاً.. اقترب منه توفيق بعدما غادر رب العمل، فأسر له كلاماً في أذنيه:

- لا تقلق يا صديقي، يبدو أن هذا الجبان اصطحب فاطمة إلى بيته..

تلفظ بهذا الكلام وعيناه تشعان حقداً، فعقب الآخر ويداه ترتعدان:

- سأدمره.. سأدمره...

- فليكن ذلك، ولكنك تحتاج خطة محكمة.

- الأمور واضحة، ولا تحتاج خطة..

- إذاً، ما الذي تنوي فعله؟

فكر لحظات ثم قال:

- أين كريم؟

التفت الآخر يميناً وشمالاً، ثم أجاب:

- سيكون في القاعة الثانية.

- لا بد لي من الحديث معه.

ثم نظر إلى الساحة، فرأى صاحب المعمل يغادر المكان، لذلك رمى ما بيديه، وانطلق مسرعاً يبحث عن كريم. وما أن رمقه هذا الأخير حتى تقدم تجاهه:

- ما الذي يجري يا أحمد؟ إنني أرى وجهك شاحباً..

- لا شيء، قل لي: هل تود الانتقام من ذاك اللعين؟

تفطن إلى ما كان يصبو إليه، لذا أجاب دون تروٍ:

- نعم، وأرجو أن يكون ذلك اليوم الذي سأشفي فيه غليلي قريباً.

- حسناً. سنلتقي مساء اليوم في مقهى البساتين، وهنالك سندرس خطتنا..

عاد الجميع إلى عمله، فساد الضجيج والصخب الأرجاء. لقد ظل العمال يرمقون فاطمة بنظرات شزراء سريعة، وما هي إلا ثوان حتى انغمسوا في العمل دون أن يتوقفوا إلى أن رن الجرس، فانصرفوا إلى الغداء.

اتجه الأربعة صوب الشارع الرئيس والصمت يجثم عليهم، وما أن بلغوا المكان الذي اعتادوا تناول الغداء فيه حتى سألهم توفيق:

- هل نطلب الوجبة نفسها؟

أشاروا إليه بالموافقة بعدما اتخذوا الكراسي للجلوس. لقد كان أحمد يأكل بطريقة سريعة كأنه عانى جوع سنين عجاف، إذ لم تمر إلا بضع دقائق حتى أنهى غداءه، ثم توجه عند بائع السجائر، فابتاع منه واحدةً ووقف غير بعيد يرتشفها وعيناه تنظران إلى الجهة المقابلة من الشارع، فيما كان الآخرون يدفعون ثمن الغداء.

عادوا إلى المعمل، فجلسوا في الساحة منتظرين رنين الجرس. أما فاطمة، فقد تناولت الغداء الذي أحضرته معها من الخارج. ولما دق الجرس، قفزوا من مكانهم، ثم توجهوا إلى القاعة حتى يسترسلوا في العمل.

اشتدت الحرارة في الخارج، لذلك اختبأ البواب في غرفته الصغيرة، أما العمال الذين يشتغلون داخل القاعات، فقد ظلوا يتفصدون عرقاً.. كانت الساعات المسائية طويلة ومؤرقة؛ لأن الأجواء في الداخل تزداد سوءاً كلما ارتفعت درجة الحرارة، فيتصبب العمال عرقاً، وتفتر حركاتهم، ومن ثم ينتظرون ساعة المغادرة كما ينتظر السجين ساعة الفرج...

بعد ساعتين من العمل، دلف ميمون إلى المعمل، فشرع يتجول بين العمال، ويتفحص الملابس التي أنتجوها بتؤدة.. كان يسير تجاه فاطمة التي ابتسمت في وجهه، فبادلها الابتسام نفسه، فأتبعه بحركات تنم عن علاقة خفية تجمع بينهما.

لما اقترب وقت المغادرة، وقف في الساحة ينظر إلى العمال الذين يمشون الهوينى تجاه قاعة تغيير الملابس. خرج توفيق وعمر، وبعدهما أحمد الذي وقف لحظات أمام المخرج ينظر إلى رب العمل نظرات ملأى بالحقد والكره، لكن الآخر لم يكن غافلاً عن دوافع هذه النظرات، وما قد يترتب عليها، لهذا، بادله بابتسام ماكر.

غيروا ملابسهم بسرعة، ثم هموا بالمغادرة، بيد أن مثول فاطمة أمامهم أدى إلى التأخر والتريث قليلاً.. طلب منها أحمد مصاحبتهم، لكنها اكتفت بالقول:

- لن أذهب إلى الحي هذا المساء..

- إذاً، إلى أين؟

سألها بصوتٍ مرتفع، فردت بهدوء مرفق بابتسامة شاحبة:

- إلى بيت جديد.

- منذ متى كان لك بيت جديد؟

- منذ أمس.

لم تضف شيئاً على هذه الكلمات، فرمقت ميمون ينتظرها قرب الباب الصغير، لذا، انطلقت صوبه وقد تركت وراءها ناراً مؤججة يصعب إخمادها. بعدما بلغوا مقهى البساتين الذي كان شاغراً هذا المساء، اتجهوا نحو آخره، فجلسوا هم الأربعة في مكان واحد، وما أن استقروا فيه حتى بادرهم أحمد قائلاً:

- سنضرمُ النار في المعمل غداً..

فاجأت هذه الكلمات السريعة الجميع، فعلت سحابة استغراب ملامحهم، فرد عليه توفيق بحدة:

- ما هذا الهراء؟ أتريد منا أن ننهي حياتنا في السجون؟

- نحن مسجونون منذ فتحنا أعيننا على هذا الوطن الجريح، إذاً، لا ضير...

تدخل كريم بعد أن تجرع جرعات من قهوته المُرة:

- نحن هدفنا هو الحصول على حقنا، وليس أن ندوس حقوق الغير.

- ذلك المعمل لا حق لنا فيه، لهذا لا بد من إحراقه..

قالها أحمد برباطة جأش، غير أن توفيق لم يعجبه الأمر. أما عمر، فإنه اكتفى بالإنصات إلى حوارهم الذي بدأت تتشعب سبله، وتتعالى أصوات الخائضين فيه.

ثم أردف أحمد وهو يزبد ويرغي:

- إذا كنتم حقاً أصدقائي، ومعي في صفي، فلا بد من الاتفاق حول كلمة سواء.

عقب كريم بهدوء:

- نحن معك، لكن ما محل صاحب المعمل من خطتنا هذه؟

- ذاك أمره عليّ..

- ما قصدك؟

- اسمع يا كريم، أنتم ستضرمون النار في البضاعة، وأنا سأقتله.

اتسعت عيونهم حتى كادت تخرج من مكانها، أما هو فقد تلفظ هذا القول ببرود، وهذا ما جعلهم يحسون أنه قد حسم أمره.

وبعد الكثير من الأخذ والرد، استقر الجميع على رأي أحمد، فغادروا المقهى متجهين إلى حيث سيمتطي كريم سيارة أجرة صغيرة، فيما ظل الآخرون ينتظرون الحافلة في صمت...

وصلت فاطمة حي الزهور حيث ابتاع لها ميمون شقة، فترجلت السيارة متوجهة نحو الشقة، فيما كان هو يسير خلفها ويتوارى من العيون من سوء ما يفعله. كانا قد قضيا ليلة أمس في هذه الشقة، لذلك اتفقا على أن يترددا عليها كلما سنحت لهما الفرصة. كان له ابنان مقيمان في الديار الأوربية، أما زوجته فقد بلغت الخمسين من عمرها، ولم تعد تملأ عينيه، لذلك بدأ بالخادمة التي فقدت زهرة عمرها في بيته الكبير، وبعدها انتقل إلى المعمل دون أن يأبه بها، إذ يختار كل يوم واحدة من العاملات الصغيرات اللائي لا يتجاوز عمرهن العشرين أو الثلاثين سنة. لقد كان يأخذهن إلى شقق مختلفة، أما فاطمة، فإنه ابتاع لها شقة ما دام يرى أن علاقته بها ستطول.

كان الأصدقاء جالسين في الغرفة، وقد تكدسوا في زاوية واحدة يتحدثون بأصوات خفيضة فيما اتفقوا عليه. لقد قرروا إحراق المعمل غداً، لكنهم ألفوا صعوبة أمامهم، وهي العمال، لذا قال عمر محاولاً لفت انتباه الآخرين:

- سنخبرهم صباحَ غدٍ بما أزمعنا القيام به.

نظر إليه بحدة، ثم استفهمه قائلاً:

- ألا تملك عقلاً يا عمر؟ هل سنخبرهم حتى يفشوا سرنا؟

قالها أحمد وعلامات الغضب بادية عليه، لكن سرعان ما تدخل توفيق قائلاً:

- لن نخبرهم بهذا، لكن، سنقول لهم إن لدينا إضراباً هذا اليوم، ولنرَ ما الذي سيقررونه..

يسأله أحمد وعيناه مركزتان في عينيه:

- وماذا عن الآخرين؟

- أي آخرين تقصد؟

- الذين قد يمتنعون عن خوض الإضراب.

حك توفيق مؤخرة رأسه، ثم تلفظ بكلمات محاولاً إقناعهم:

- هؤلاء سنخبرهم بالأمر، وإنني متأكد من أنهم سيغادرون المعمل.

- سنرى.

كانت هذه هي الكلمة التي ختم بها أحمد الحوار الذي دار بينهم، ثم ظل يحدق فيهما والحيرة تأخذ منه كل مأخذ، فيما انشغل توفيق بإعداد العشاء. قام من سريره، ثم توجه صوب النافذة، فظل سادراً، إذ ينظر إلى الأفق دون أن ينطق بكلمة. لم يفكر في مآل ما هم مقدمون عليه، بيد أنه كان يرى إحراق المعمل، وقتل صاحبه سيكون بداية لعمليات متتالية ومتشابهة ستصل عدواها إلى معامل الوطن كلها، وهذا ما كان يمده بالقوة والرغبة في الفعل. وبينما كان ينظر في شرود، لفت انتباهَهُ ذلكَ الرجلُ الذي كان قد

أمده بغطاء ذات ليلة باردة. كان يمشي متمايلاً بحيث يصطدم بجدران الزقاق، وسيجارة مشتعلة بين أصابعه.. بقي لحظات طويلة مشدوهاً إلى هذا الرجل إلى أن باغته عمر متسائلاً عن سبب شروده:

- فيم تفكر يا أحمد؟

أجابه دون أن ينظر إليه:

- فيما يشغل بالك.

- أنا أفكر في أمر المعمل، ومصير العمال بعد إحراقه.

تنهد طويلاً، ثم قال بعدما ارتد بصره إلى الغرفة:

- هذا ما يثقل كاهلي، لكن مهما طال ليلهم الدامس، فإن الصبح سيقبل بحياة جديدة لا محالة.

استلقى عمر على السرير فيما جلس توفيق على كرسي يطالع كتاباً. أما أحمد، فقد أنهى سيجارته، ثم تمدد في فراشه محاولاً إغماض عينيه.

ساد السكون الغرفة حيث كان عمر وأحمد غارقين في النوم.. اقترب منهما توفيق بعدما وضع العشاء على المائدة، ثم طفق يوقظهما بتؤدة. وبعد دقيقة، كانوا جالسين حول المائدة، فانشغلوا في الأكل وهم يتبادلون نظرات باردة ثقيلة في بعضهم البعض. وما أن انتهوا من الأكل حتى أطفأ توفيق المصباح، ثم تمدد في سريره، ولم تمضِ إلا دقائق حتى كان الجميع يغط في نوم عميق.

في هذه الأثناء، كانت الأجواء في الخارج فاترة، إذ نام جميع السكان، وأُطفِئت الأضواءُ فتوقفت الحركةُ في الشوارع والأزقة...

19

تسلل ضوء الصباح من نافذة الغرفة، فتركز شعاعه في عيني أحمد، ولم تمر إلا ثوان حتى فتحهما بعد إطباقٍ، ثم قام من مضجعه متجهاً صوب الحمام حيث ظل مدة قصيرة. كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، والأجواء في الخارج ما تزال هادئة إلا من حركات بعض المارة في الزقاق. عاد إلى الغرفة، فأيقظ صديقيه اللذين يغطان في النوم، وبالكاد استيقظا، ثم ارتديا ملابسهما فانصرفا. أما هو، فقد ظل في الغرفة بضع دقائق، ما جعلهما ينتظرانه في الزقاق حتى خرج وهو يتأبط شيئاً ما، كان يحاول إخفاءه بكل ما أوتي من قوة عقل، ورباطة جأش. رمقه عمر، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

وقفوا دقائق في الشارع حيث تقف الحافلة. ولما تأخرت، قرروا المشي على الأقدام حتى يبلغوا المحطة الأخرى. لقد كان الشارع شبه شاغر، والشمس سادت الأرجاء كلها، كانت حرارتها مرتفعة هذا الصباح، ما جعل أحمد يفتح أصداف قميصه الأزرق، فظل يتفصد عرقا، ويداه تضطربان كاضطراب المحتضر. كانت اليد اليسرى في جيبه منذ غادر البيت، إذ ظل يلصقها بجنبه طوال الطريق.

في هذه الأثناء، كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، وقد اقتربوا من الوصول إلى الحي الصناعي والحافلة لم تظهر بعد.. ضاعفوا من خطوهم

كأنهم يحاولون إدراك موعد مهم، لكنهم وصلوا المعمل بعد جهد جهيد. تقدم توفيق فطرق الباب الصغير طرقات خفيفة، ثم تراجع خطوة إلى الخلف.

حين تلقي نظرة على وجوههم تراها شاحبة ممتقعة اللون، وعيونهم جاحظة، وأيديهم مرتعشة، وسيقانهم متصلبة.. كانوا يشكلون صورة متوترة تنم عما يعتمل في أنفسهم من حيرة وتردد، بيد أنهم سرعان ما نجحوا في إعادة حالهم الاعتيادية بعدما دخلوا المعمل، ثم اتجهوا إلى غرفة تغيير الملابس. منذ أن دخلوا القاعة وعينا عمر مركزتان على يد أحمد اليسرى، إذ ظل يرصده طوال المدة التي قضوها في القاعة. أحس بدوافع هذه النظرات الثاقبة، لذلك آثر أن يتأخر في القاعة حتى غادر صديقاه وبعض العمال الموجودين هنالك، وبعده انحنى بسرعة، ثم أخرج قطعة القماش الملفوفة، ووضعها وراء آلة معطلة، وانصرف تجاه الساحة.

تأخر العمال هذا الصباح، فكانوا يدخلون فرادى، ويتوجهون تلقاء القاعة حيث يعترض أحمد طريقهم، هامساً في أذنِ كلّ واحد منهم:

- اليوم لدينا إضراب عن العمل..

فيما تكلف عمر بالعاملات اللائي يتجهن صوب المكان المخصص لهن. لم يبد الجميعُ علامةَ رفض لفكرة الإضراب، لذا تراهم مجتمعين بعدما غيروا ملابسهم.

مرّتْ ساعة والعمال مكدسون في الساحة حيث ينتظرون قدوم رب العمل، فيما كان أحمد يجيل بصره في الحشود، غير أنه لم يرَ فاطمة، فازداد ظنه أنها قضت الليلة رفقة رب العمل الذي صار عدوه اللدود. ولما تأخر هذا الأخير، سادت بين العمال حركة صخب ولغط، فانقسموا قسمين: الأول عزم على الالتحاق بعمله، والثاني ظل متشبّثاً بفكرة الإضراب.

إزاء هذا الوضع الذي كان متوقعاً بالنسبة لأحمد، اضطربت الأفكار في ذهنه؛ إذ لم يعد يدري إن كان سينفذ خطته في ظل هذه الظروف أم سيتريث قليلاً.. فالتفت تجاه كريم الذي فاجأه بحركة عينيه مشيراً إليه بالدخول إلى المعمل، ففهم الآخر هذه الإشارة، لذا دلف إلى القاعة السفلى، ثم أنارها، ومكث ثمة دقائق حتى التحق به كريم وهو يحمل قنينتي بنزين متوسطتي الحجم، ويخرج من جيبه علبة عود ثقابٍ صفراء اللون.

في هذه الأثناء، كان البواب يتصل بربّ العمل الذي لم يجبه إلا بعد محاولات عديدة باءت بالفشل، وما أن أخبره أمرَ العمالِ حتى أكد عليه بأن لا يفتح الباب إلى أنْ يأتي، فلمعت في ذهن البواب فكرة إغلاق الأبواب الداخلية كلها، حتى يمنع المضربين من دخول قاعات العمل عامة، والقاعة السفلى التي تضم البضاعة بالخصوص. لكنه فكر متأخراً؛ لأن أحمد بدأ يسكب البنزين في القاعة، فيما كان كريم يعد نفسه لإشعال النار دون تردد، ودفعة واحدة.

ازداد الصخب في الخارج، وتضاربت الآراء، وتعالت الأصوات، وكثرت الحركة بين العمال. لقد كان كريم يلقي نظرة على الساحة بين الفينة والأخرى، وما أن رأى الأمور تخرج عن نصابها حتى رمى بعود ثقاب وسط القاعة، إذ لم تمضِ إلا ثوانٍ حتى فقد الجميع رشده، وانطلق البواب يصرخ ملء حنجرته دون أن يجد آذاناً صاغية من قبل العمال:

- النار.. النار في المعمل، تحركوا...

سمع بعض الحراس في المعامل المجاورة استنجاده، فجاؤوا يهرعون صوبه، فحاولوا ولوج المعمل. كان أحدُهُمْ يواجه النار المشتعلة بقطعة ثوب، وآخر بالماء، وثالث بمطفأة الحريق، لكنهم، ورغم الجهود التي بذلوها، لم يستطيعوا إخماد الحريق الذي تعالى لهيبه حتى بات ينذر بالكارثة.

كان العمال في الساحة يصرخون، ويتصادمون بالأكتاف وهم يحاولون الفرار بجلودهم، فاتجهوا صوب القاعة لكي يأخذوا ملابسهم، فيما تسلل أحمد من باب خلفي صغير بعدما اشتد لهيب النار، فاختبأ خلف الحائط الخلفي للمعمل، لكنه تذكر قطعة القماش التي خبأها في القاعة، لذلك انطلق يركض بخطوات سريعة صوبها، فدفع بعضاً من العمال، ثم انحنى أمام الآلة المعطلة، فمد يده اليمنى ليخرج القماش..تأبطه وعاد جرياً إلى حيث يختبئ.

أما كريم، فقد خرج إلى الساحة، وصرخ في وجهيّ عمر وتوفيق ولعابه يتطاير كشرارة النار:

- فلنغادر المكان الآن..

أجال بصره بسرعة، ثم أردف:

- لكن، أين أحمد؟

التفت الآخران يمنة ويسرة، لكنهما لم يعثرا عليه وسط العمال، وربحاً للوقت، قرروا الفرار قبل أن تأتي الشرطة، وتلقي القبض عليهم.

ظل أحمد قابعاً في مكانه، وبين الفينة والأخرى، يلقي نظرة خاطفة على البابين، لكنه لم يكن يرى إلا العمال الذين يغادرون المكان بطريقة فوضوية؛ إذ كل واحد يسعى جاهداً إلى النجاة بحياته، ومن ثم لم يكن أمامه إلا المغادرة والانتظار في الخارج حتى يصل رجال الإطفاء الذين اتصل بهم البواب.

في ظل هذه الأجواء، دخلَ ميمون المعمل مسرعاً، ووجهه يتفصد عرقاً، ويداه ترتعشان. لم يغلق أبواب سيارته؛ لأن همه هو إنقاذ البضاعة والآلات. كانت فاطمة تجري خلفه، ولما وقف متسمراً أمام مدخل المعمل حيث يتحسر على ما حدث دون أن ينبس ببنت شفة، تسلل أحمد خفية، فاتجه نحوه بخطوات سريعة، وما أن رمقته حتى صرخت ملء حنجرتها:

- ما الذي تنوي فعله يا أحمد؟

قالتها والدموع الساخنة تجري على خدها، بيد أن اللحظة الفاصلة بين صراخها والتفات ميمون لم تكن كافية لإنقاذ حياة هذا الأخير؛ لأن أحمد

كان سريعاً، وحركته أكثر سرعة، إذ ما أن التفت ميمون حتى ألفاه ماثلاً خلفه، وعيناه محمرتان، ويداه ترتعشان وتضطربان.

ثوان معدودة، فكان مستعداً لتنفيذ الجزء الثاني من خطته؛ إذ أخرج مَديّتَهُ التي كان يخبئها في قطعة القماش، فطعنَ ميمون طعناتٍ متتاليةً جعلته يصرخ ملء حنجرته. وما أن بدأ الدم يخرج من بطنه حتى سقط صريعاً مضرجاً بدمائه القانية. أما فاطمة، فإنها لم تستطِع الصمود أمام هذا المشهد الدموي، لذلك أغمي عليها، فتقدم نحوها بسرعة، ثم انطلق يحركها ويهتف:

- فاطمة، انهضي.. انهضي لآخذك معي..

لم تُخِرْ جواباً، ولم تحرك ساكناً، وإنما كانت جثةً هامدةً، لذا اضطربت حركته، واختلطت عليه الأمور. وقد زاد الطينَ بلة، الصراخُ الذي سمعه خارج المعمل حيثُ تلألأتِ النيرانُ في سيارة ميمون.

لم يذهب كريم مباشرة، وإنما لمعت في ذهنه فكرة إحراق السيارة حتى تكون الخسائر فادحة، ويشفي غليل سنين من الاستغلال والإذلال. كان يُكِنُّ حقداً كبيراً لربِّ عمله، لذلك ظل سنوات ينتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر.

أعاد أحمد تحريك فاطمة مرات كثيرة، لكنه فشل في إيقاظها من غيبوبتها. ولما كانت الأمور تزداد سوءاً، قرر الفرار من المعمل، حيث اتجه صوب الشارع الرئيس، ثم دخل سوقاً صغيرة ومزدحمةً، فاختبأ بين الناس ليتابع

سيره بطريقة طبيعية. نظر إلى يده اليمنى، فألفاها مُخَضَّبَةً بالدم.. اقترب نحو قمامة، فأخذ ورقاً أبيض، وانطلق يمسح الدم بطريقة عبثية.

وصل رجال الإطفاء، وقد أجهدوا أنفسهم في إخماد الحريق المؤجج، لكنهم لم يفلحوا في ذلك؛ لأن البضاعة والآلات قد احترقت.

دقيقتان، وكانت سيارة الإسعاف قد وصلت رفقة رجال الشرطة. اقترب ضابط نحو الجثة، ثم وضع سبابته فوق عنق الضحية، فوجد أنه قد لفظ أنفاسه، فأشار إلى الطبيب الشرعي الذي كان جانبه، ثم أغمض عينيه، وأمر فريقه بحمله إلى السيارة...

في هذه الأثناء، كان رجال الشرطة يطرحون أسئلة على البواب، ويطلبون منه تفاصيل حول الحادث. كان يجيب عن الأسئلة وفرائصه ترتعد، أما باقي العمال، فإنهم خضعوا للاستجواب في الزقاق المقابل للمعمل.

اتفق كل المستجوَبين على أن الأصدقاء الأربعة هم من اقترف الجرائم؛ لأنهم كانوا يخططون للأمر منذ مدة.

لما وصلت سيارة الإسعاف الثانية، كانت فاطمة قد استعادت وعيها، فانطلقت تبكي بكاءً مريراً، وبصوتٍ شجيٍ هتفت:

- لماذا فعلت هذا يا أحمد؟ لمَ وضعت نهاية لحياتك؟

سمع الضابط هذا النحيب، فاقترب منها بضع خطوات، ثم حدثها برباطة جأش:

- من يكون أحمد؟

نظرت إليه بخوَرٍ شديد، ثم عادت إلى البكاء. لكنه، أعاد طرح السؤال نفسه دون أن تحر له جواباً، ولما استمرت حالها على هذه الشاكلة، طلب من شرطي أن يأخذها إلى المخفر، وهناك سيتم استجوابها بطرقٍ وأساليبَ متنوعةٍ.

بلغ الأصدقاء الثلاثة الزقاق، فدلفوا إلى البيت بطريقة غير معتادة، فأزال كل منهم ملابسه، ثم خيم الصمت عليهم وهم يتفصدون عرقا، ويتبادلون النظرات كأنهم يهنئون بعضهم البعض على ما قاموا به.

لم يعد أحمد إلى الحي، وإنما ظل جالساً في الحديقة محاولاً إعادة أنفاسه. كان يفكر في فاطمة ومآلها؛ لأنه تيقن من أن رجال الشرطة لن يتركوها وشأنها، وسيفعلون كل ما بوسعهم حتى يستنطقوها. لم يكن مطمئناً لها، فهو يعلم أنها لن تصبر على التعذيب طويلاً، وقد تبوح بكل شيء منذ الوهلة الأولى. حاول دفع هذه الوساوس عن نفسه، فاستلقى على ظهره في العشب، ولم تمضِ إلا مدة قصيرة حتى كان يغط في النوم.

في هذه اللحظة التي نام فيها غير مكترث بما سيترتب على فعله، كانت التحقيقات قد بلغت ذروتها، والاستجوابات بدأت تعطي أُكُلها. لم تكن أقوال البواب التي أدلى بها في مكان الحادث، متعارضة مع ما قاله في المخفر. كان مقراً على أن مقترفي الجريمة هم الأربعة الذين فروا من المعمل بعدما فعلوا ما فعلوا. أما فاطمة، فإنها حاولت الصمود والثبات على كونها لم تنطق باسم أحمد قصداً، وإنما كانت في حال هذيان، إذ لم تكن تعي ما تتلفظ به،

إلا أن المستجوِبين لم يكونوا ليضيعوا هذا الخيط الذي سيقودهم إلى الجانينَ.

سألها، وقد ألح في السؤال:

- من يكون أحمد؟

تطبق قليلاً، ثم تتكلم بصوتٍ مبحوحٍ، وعيناها محمرتان منتفختان:

- أحمد.. هو...

ثم تعود إلى الصمت مجدداً، لكن نظراته الحادة تجعلها ترتعد، فتنطق دون تردد:

- صديقي.

ابتسم ابتسامةَ فائز ظفر بغنيمة، ثم استرسل قائلاً:

- هل يعمل في المعمل؟

طأطأت رأسها، ثم أجابت:

- نعم.

- أتى إلى المعمل هذا اليوم، صحيح؟

- نعم

قالتها والدموع تسيل من عينيها، فاسترسل في السؤال، وكف يده اليمنى على خده:

- أين ذهب؟

- لا أدري.

- هل تعرفين أين يسكن؟

ترددت طويلاً، ثم قالت دون أن تتوقف عن البكاء:

- أنا سبب كل ما حدث...

- نعم، تكلمي..

- لم يتقبل وجودي مع غيره.

- تقصدين ربّ العمل. إذاً، كانت بينكما علاقة ما؟

- نعم.

- وأحمد؟

- كنت أعرفه قبل الحاج ميمون، وهو من توسط لي للعمل..

- وكيف كانت العلاقة بين ربّ العمل وأحمد؟

كفكفت دموعها، ثم قالت:

- علاقة متوترة.. لم يكن راضٍ عما فعلته.

- وماذا فعلت؟

سألها وقد أظهرَ اهتماماً بالغاً لما ستقوله، فأجابت بعدما ابتلعت ريقها:

- كنت أرافقُ ميمون في سيارته..

- حسناً، أين يسكن أحمد ورفاقه؟

لم تُحر جواباً، وهذا ما دفعه إلى إعادة طرح السؤال بنبرة مليئة بالوعيد، فلم يكن أمامها إلا الكلام بكلمات متقطعة:

- حي سيدي عث...

قاطعها بسؤال آخر؛ لأنه كان يتأكد من تصريحات البواب فحسب:

- هل تعرفين رقم الزقاق؟

- لا..

- حسناً. سترافقيننا إلى هناك.

خرج المستجوِبُ من القاعة وهو يفرك يديه الغليظتين، ثم دلف إلى قاعةٍ أخرى حيث يجلس البواب فوق كرسي حديدي، فخاطبه بهدوء:

- حسن، سترافقنا في جولة سريعة، لكن، هل تذكُر وجوههم؟

أجاب بسرعة وهو يحرك رأسه مشيراً إلى الموافقة:

- بطبيعة الحال.

انطلقت سيارتا الشرطة تجاه الحي الذي يسكنه الأصدقاء، فكانت السيارة الأولى عادية، إذ لم تحمل أي إشارة ترمز إلى الشرطة. أما الثانية، فإنها تشير إلى ذلك، والجميع يعرفها من الاسم الذي تحمله، والإشارة الضوئية التي توجد فوقها.

مكثت السيارة الثانية غير بعيد عن الحي، فيما كانت الأولى تقف قرب الحديقة، فترجل منها ضابطان، وخلفهما البواب. توجها عند البقال، فسألاه عن الأشخاص المبحوث عنهم، مقدمين صفاتهم بشكلٍ مفصلٍ ودقيق، لهذا تعرف عليهم البقال دون كثيرِ عناءٍ، فدلهما على الزقاق حيث يسكنون.

لما بلغ الضابطان وسط الزقاق، وجدا شاباً هناك، فسألاه عن المبحوث عنهم، والذين تعرف عليهم منذ الوهلة الأولى، فأشار إلى المنزل رقم **10**.

في هذه الأثناء، أطل توفيق من النافذة، فلمح الرجلين، لكنه لم يعرف أنهما ضابطان، وما أن رمق البواب خلفهما حتى أغلق النافذة، ثم خاطب الآخرين بهستيريا:

- فلنفر من هنا حالاً، إن رجال الشرطة في الزقاق..

قفزا من مكانيهما، ثم اضطربت حركتهما، فارتدى كريم حذاءه وهو يدعو بالويل والثبور، ثم غادر الغرفة. أما الآخران، فقد أحكما إغلاق الباب، وانتظرا رحيل الضابطين، إلا أن هذين الأخيرين، ظلا يطرقان الباب. وما أن هما بالانصراف، حتى سمعا حركة داخل الغرفة، فكسرا القفل بسرعة، ثم فتحا الباب، فألفيا عمر وتوفيق هامدين في مكانهما، بحيث لم يصدرا حراكاً، ولا رد فعل أو مقاومة ما.

تَهَلَّلَتِ الدموعُ من عينيهما لما ألقى الضابطان القبض عليهما. وهما يغادران الغرفة ركزا نظرهما في البواب طويلاً، فأشاح بوجهه عنهما مطأطِئً رأسه.

كان أحدهما يدفع الاثنين أمامه، فيما التفت الآخر ملقياً نظرةً على الدرج، فلمعت في ذهنه فكرة الصعود إلى السطح، وما أن تحرك بضع خطوات حتى بدأ يسمع صوت أقدام تصعد، فضاعف من خطوه حتى رمق كريم يركض

في السطح. طارده الضابط بخطوات سريعة، وبعدها أخرج مسدسه، ثم صوبه نحوه وهو يصرخ:

- توقف وإلا أطلقت النار.

لم تجد هذه الكلمات نفعا؛ لأنه استمر في الجري والقفز من سطح إلى آخر، والآخر خلفه يتابع الخطو بمشقة كبيرة. في لحظة هربه، تفاجأ بصوت طلقة نارية صارخة، فخيل إليه أنها أصابته، بيد أنه استرسل في الجري بسرعة جنونية حتى بلغ سطحاً، لم يعد أمامه خيار إلا القفز إلى الشارع أو العودة إلى الخلف. ظل يلتفت إلى الأمام، ثم إلى الخلف عدة مرات. وفي هذه المدة التي ظل حائراً فيها، كان الآخر يقترب نحوه بخطوات سريعة، ومسدسه مصوب إليه، وما أن اقترب منه، بحيث لم يعد يفصل بينهما إلا مسافة قصيرة، حتى قفز كريم من فوق السطح وقد اغرورقت عيناه، فصرخ الضابط ملء حنجرته:

- توقف..

تردد صدى الصوت في الأرجاء، بيد أن كريم كان قد عزم على الأمر، فاختار الوقوف عند هذه المرحلة من حياته.. بعدما سقط أرضاً، تحوم الجميع حوله، فوجدوه مضرجاً بدمائه التي تسيلُ من أنفه وفمه، وأماكن أخرى من جسده الذي كاد يتهشم كله. تَهَلَّلَتِ الدموعُ من عيونهم، وتعالت صرخاتهم، وازدادت الحشود ازدحاماً، فأقبل بعض رجال الشرطة يفضونهم بالقوة...

20

كان توفيق وعمر قابعين داخل السيارة الكبيرة ويداهما مصفدتان. أما كريم، فقد جمعت أشلاءَهُ سيارةُ إسعافٍ، فأخذته إلى مستودع الأموات.

استيقظ من نومه مذعورا، ثم توجه نحو الزقاق، فرمق من بعيد سيارة الشرطة، لذلك، تراجع بضع خطوات، ثم بقي ينظر إليهم من بعيد حتى انصرفوا. ازدادت حيرته، وتسارع نبض قلبه حين رأى سيارة الإسعاف هي الأخرى، تغادر المكان حيث وضع شريطٌ من اللونين الأحمر والأبيض حول المكان الذي سقط فيه كريم.

عاد إلى الحديقة يتوارى خلف الشجيرات، فجلس على كرسي إسمنتي يفكر في الوجهة التي سيوليها وجهه. وبعد تفكير مضطرب وطويل، استقر رأيه على العودة إلى البلدة، غير أنه تذكر أن رجال الشرطة لن يتركوه، وسيبحثون عنه في كل الأمكنة، وحتى إن عزم على العودة، فإنه لا يتوفر إلا على ورقة نقدية قيمتها مائتا درهم. تذكر فاطمة مجدداً، وقد استقر في نفسه أنها هي من أوشى بأصدقائه، وليس ببعيد أن تشي به هو الآخر، لذلك كان يرغب في لقائها. لكن، كيف؟ وما دام مبحوثاً عنه، فهل يستطيع التحرك بحرية؟ كان يناجي نفسه، ويتساءل إن كانت موجودة في البيت الذي تقطنه؟ وماذا لو رآه أحد رجال الشرطة، وألقى القبض عليه؟

بدأت الشمس تدبر نحو الغروب، والظلام يخيم على الأرجاء، غير أن الحركة ما تزال صاخبة، والناس يملؤون الأمكنة كلها؛ فالمقاهي والمطاعم والمواخير ممتلئة عن آخرها، وأضواء الشوارع مشتعلة، والسيارات تجوبها من كل ناحية، والحديقة خلت إلا من بعض الأشخاص الذين يختبئون خلف الأشجار لممارسة الحب، وبعض المتسكعين الذين يبحثون عن قطع كرتونية حتى يوفروا فراشاً للنوم.

في هذه الأجواء المسائية، كان يقف متسمراً في مدخل الحديقة، يجيل بصره في فضائها كأنه يبحث عن شيء افتقده. وبعد هنيهة، رمق شاباً يضع يديه فوق رأسه، ويبكي بكاءً مريراً، فارتأى الاقتراب منه لعله يساعده. وما أن مثل أمامه حتى رفع رأسه، وملامح وجهه ونظراته تنمان عن حزن وأسى عميقين. فبادره أحمد بكلمات سريعة مستفهماً عن حاله:

- أرى أنك تبكي، أليس كذلك؟

نظر إليه قبل أن يجيب باختصارٍ شديدٍ:

- ربما..

- ما الأمر؟

عاد إلى البكاء مجدداً.. ولَأْياً حاول كفكفة دموعه، ثم انطلق يتحدث بصوتٍ شجيٍّ مليءٍ بالأسى:

- لقد تُوفيت والدتي...

فتعالى نحيبه، مما دفع أحمد إلى الجلوس جانبه حيث يربت على كتفه ويواسيه:

- لا تحزن يا صديقي؛ فهذا قدر...

ثم أردف:

- والدتك هنا؟

- لا، في البلدة.

- إذاً، أنت تعيش وحدك؟

- نعم.

- وهل ستذهب إلى البلدة؟

نظر إليه نظرات شاحبة قبل أن يجيب وقد احمرت عيناه:

- لن أذهب.

- ولِمَ؟

سأله باستغراب، فرد الشاب بهدوء:

- لقد ماتت منْ أذهبُ لأجل رؤيتها.

- ووالدك؟

- لا يهمني أمره.

وقعت هذه الكلمات وقعَ السهام في نفس أحمد؛ إذ تذكر والدته، وما كانت تتعرض له من تعذيب من قبل والده الذي لم يكن يحبه؛ لأن علاقتهما

كانت متوترة منذ أن كان صبياً صغيراً.. لم ينجُ هو الآخر من الضرب والتعذيب والتنكيل مرات متتالية.

رمق الشاب دمعة تتهلَّلُ من عينيه، فحاول مواساته قائلاً:

- يبدو أنك حزين..

- لست حزيناً، بيد أني متعب قليلاً.

- إذاً، يمكنك الانصراف لبيتك.

سرح ببصره في الحديقة دون أن ينبس ببنت شفة. وبعد دقيقة، عقب ووجهه واجم:

- ليس لي بيت..

ركز نظره في وجهه، ثم سأله بلطف وإشفاق:

- أتريد مرافقتي إلى البيت؟

لم يتأخر في الموافقة ما دام بيت الشاب بعيداً عن الزقاق الذي يسكنه، لذلك وافق دون تردد، فاصطحبه معه وقد كان يسيران جنباً إلى جنب. لم يكن البيت خارج الحي، وإنما كان يوجد في الزقاق رقم **3**، لهذا رآه أحمد مكاناً آمناً للاختباء حتى حين. بيد أنه لم يخبر الشاب عن قصته، لكنه ارتأى أن يترك الأمر حتى يبلغا البيت..

كانت الأجواء صاخبة في المخفر؛ إذ تعالت الصيحات، وبكت العيون بكاءً مريراً. لقد تعرض توفيق وعمر لأبشع تعذيب، لكنهما رفضا الاعتراف بالتهم المنسوبة إليهما، لذلك ظلا متمسكين بأقوالهما.

حاول المستجوِبُون استمالتهم بأسئلة متنوعة، بيد أن هذا لم يجد نفعاً. وما دام الوضع على هذه الحال، فإنهم ارتأوا نزع الاعترافات منهما بواسطة الأسلاك الكهربائية. وبعد محاولات متتابعة، فقد توفيق وعيه وضاق تنفسه، فيما ظل الآخر يصرخ ببراءته، لكن هذا لن يخفف عنه الضربات الثقيلة، ولن يوقف سوط التعذيب الذي يجلد جسده كله.

غادر الفريق الأول من المستجوِبين القاعة، فدخل فريقٌ ثانٍ أكثرُ قسوةً ورهبةً من الأول؛ إذ له طرقٌ أخرى في التعذيب لا قبل لتوفيق وعمر بها. كان أحدهم رجلاً بديناً، له وجه دائري متجهمٌ صليبٌ، وكتفان عريضتان، وعضلات مفتولة، ويدان ضخمتان، فأومأ إلى الآخر الذي اقترب من عمر، وهو يمسك قنينة زجاج في يده اليسرى. أمسكه من ذراعه بقوة، ثم صرخ في وجهه قائلاً:

- ستعترف الآن أيّها المعتوه...

رمق القنينة فعلم بالشر الذي ينتظره، لأنه لم يكن يستطيع تحمل هذا النوع من التعذيب، لهذا أغلق عينيه وهو يبكي، ثم نطق هاتفاً وصارخاً بالأفعال التي اقترفها رفقة توفيق الذي ظلّ مشدوهاً بعدما استيقظ من غيبوبته على ذعر، وكذا ذكره اسمي أحمد وكريم. وبعد اعترافه، ألفوا

أنفسهم غير مضطرين لانتزاع الإجابات من توفيق. لذلك، لم تمضِ إلا دقيقتان حتى نقلوهما إلى السجن المحلي لكي يمتثلا أمام المحكمة.

لم تتوقف فاطمة عن البكاء طوال المدة التي مكثتها في المخفر، لكنها عادت إلى البيت، بأمر من أحد المخبرين، وقد أجهدت نفسها في التوقف عن البكاء، والتظاهر بحالها الطبيعية.. فدلفت إلى الغرفة بخطوات متثاقلة، ثم نزعت حذاءها فملابسها، واستلقت على السرير بعينين مغمضتين.

بلغ الغرفة التي يكتريها الشاب، فدخل وهو يلتفت يميناً وشمالاً كأنه يراقب المكان، أو هناك شخص يطارده. طلب منه أن يزيل حذاءه، ويجلس على السرير، فيما انشغل هو بإعداد الشاي، وبعد ذلك غادر الغرفة، متجهاً صوب البقال ليبتاع منه خبزاً. وما أن عاد حتى ألفى أحمد غارقاً في النوم، فارتأى عدم إيقاظه، إلا أنه فكر أنه قد يكون جائعاً، لذلك اقترب منه، ثم حركه بهدوءٍ بالغ. فقفز من السرير مذعوراً وقد تفصد جبينه عرقاً ساخناً.

وضع العشاء فوق المائدة، وطلب منه الاقتراب فاقترب، ثم انطلق يأكل بشراهة حتى كادت أنفاسه تختنق. ظل الشابُّ يراقبه عن كثب، وبعدما انتهيا من العشاء، فاتحه قائلاً:

- منذ رأيتك والفضول يأكلني، فهلّا حكيت لي قصتك؟

تردد طويلاً وهو يفرك كفيه، ثم تكلم دون أن يتوقف، إذ حكى له القصة كلها، وبعضاً من الأسباب التي كانت وراءها، فعقب الشاب متسائلاً عن السبب الرئيس:

- هل الغيرة هي السبب؟

نظر إليه طويلاً قبل أن يرد:

- قد تكون سبباً رئيساً، ولكن ثمة بذرة قد نمت في نفسي منذ كنت صغيراً.. لم أكن أقبل القهر والإذلال اللذين يمارسان على والدتي، وما أن كبرت حتى أحسست بمرارة هذا الفعل. كما أني عملت في ضيعات بعض دهاقنةِ القرية، فتذوقت من علقم قسوتهم. لقد كانوا يمارسون عليّ كل أشكال الاستغلال، لذلك لم أرضَ بهذا الأمر الذي يؤرقني جسدياً ونفسياً، فدخلت معهم في مشدات طويلة، كانت دائماً ما تسفر عن طردي من العمل، وهذا ما لم يكن يقبله والدي.

أطرق برهةً، ثم أردف وقد اغرورقت عيناه، وبدت دمعة متلألئةٌ تصارع جفنيه للخروج، لكنه لم يألُ جهداً في حبسها:

- كان يضربني حتى يغمى عليّ، ويترك في جسدي جروحاً يعسر تضميدها، وينمي كرهي له يوماً بعد آخر...

قاطعه الشاب متسائلاً:

- وماذا كانت تفعل والدتك؟

- والدتي مغلوب على أمرها، وإن هي احتجت، يكون لها القسط الأكبر من الضرب والشتيمة.

ترقرقت دموعه، واسود وجهه وجحظت عيناه حتى بدا كمن يصارع الموت بقوة. وما أن كفكف دموعه حتى أردف:

- لما دخلت المدرسة كنت خائفاً، لقد كنت أخاف حتى من ظلي، وهذا ما استغله المعلم، فكان يضيف إلى محنتي محناً أخرى. كان يضربني كل يوم حتى كدتُ أنفر من المدرسة، بيد أن تعذيبه بدأ يقل كلما تقدمت في دراستي حتى بلغت الكلية...

عاد إلى الصمت مجدداً، فأخذ يشرب كوب ماء دون أن يتوقف، ثم استرسل في الكلام، فيما أبدى الآخر اهتماماً بالغاً لما يقوله:

- في الجامعة، تعرضت للقمع من قبل رجال الشرطة.

سألهُ عن السبب وقد قطب حاجبيه، فأجاب:

- كنت مشاركاً في مظاهرة قمنا بها بسبب تأخر المنحة الهزيلة، فتدخلت الشرطةُ ونكلتْ بنا أيما تنكيل؛ فمنا من أُعتقل بعدما خضع لكل أنواع التعذيب، ومنا آخرون لفقتْ لهم تهمٌ كثيرةٌ. لقد عاملونا كالمجرمين وأكثر...

في اللحظة التي كان يسرد قصته، علت سحابة حزن وجه الشاب، وقد تأثر بكلامه كثيراً، لذلك سأله دون مواربة:

- أتحتاجُ مني مساعدةً؟

فكر ثوانٍ، ثم أجاب:

- نعم. سأعطيك عنوان صديقة، أريدك أن تحضرها إلى هنا.

- حسناً.

تمدد على السرير وعيناه مفتوحتان، وما هي إلا دقائق حتى عاد إلى النوم. أما الشاب، فقد بقي مدة يفكر في الأمر. كان يرى أن الذهاب عند فاطمة سيعرضه للخطر، لكنه وطن نفسه على مساعدته مهما كانت النتائج، فتمدد هو الآخر بعدما أطفأ الضوء.

كان الزقاق الذي يقطنه الشاب واسعاً، إذا ما قورن بالزقاق الذي يسكنه أحمد، والحركة فيه كانت ساكنةً هادئةً، ولم يكن به كثير من المتسكعين، وإنما كانت حركتُهُ تفترُ مع التاسعة والنصفِ ليلاً؛ لأن الجميع يدخلُ بيتَهُ، لذلك يكونُ شاغراً.

في هذه الأثناء، كان عمر وتوفيق غارقين في نوم عميق، إذ لم يفترشا إلا الأرض الإسمنتية الباردة، ولم يتوسدا إلا ذراعيهما الرخوتين المنهوكتين. كان المكان ضيقاً، بحيث لا يتسع حتى لشخصٍ واحد، وظلمته حالكة لا تسعف الماكث به في رؤية شيء في داخله أو خارجه. فحتى الشمس لم يكن لها أن تدخله.. كانت الحرارةُ مرتفعةً، وأمام ضيق المكان، لم يكن ثمة بديل سوى التأقلم مع الوضع، ومحاولة النوم لعلّ الجسد المتورم يستريح من ساعات التعذيب الثقيلة...

****

21

أدبر الليل بهمومه وويلاته، وأقبل الصبح بشمسه الساطعة التي ملأت الأرجاء..كان يتسلل خفية إلى الزقاق حيث تسكن فاطمة، يمشي بخطوات سريعة، وبين الفينة والأخرى، يلقي نظرة خاطفة إلى الخلف حتى يتأكد من عدم وجود شخص وراءه.

وقف أمام الباب، فطرقه بهدوءٍ، بيد أنها كانت ما تزال نائمة، لذلك أعاد الكرة حتى استيقظت، فخرجت بثوبٍ شفاف فضفاض، ووجه واجم شاحب، وشعر متشعث، وما أن بادرها بالسؤال حتى فتحت عينيها:

- فاطمة؟

- نعم، من معي؟

تلفت يمنة ويسرة، ثم رد بصوتٍ خفيض:

- أنا صديقُ أحمد..

التفتت إلى الزقاق، ثم فتحت الباب على مصراعيه بسرعة، وطلبت منه الدخول. ولما دلف إلى الغرفة، سألته:

- أين هو الآن؟ أيمكنني رؤيته؟

- تأخر في الرد بضع ثوانٍ، لينطق بكلمات سريعة:

- يمكنك رؤيته. ولكن، ألا يراقبك رجال الشرطة؟

- لا أظن..

قالتها وهي ترتدي ملابسها، ولما انتهت تسللا خفية، فكان يتقدمها بخطوهِ السريع إلى أن بلغا الشارع الرئيس، ثم سارا فيه مسافة حتى انحرفا تجاه زقاق ضيق مليء بالمارة.. كان يلقي نظرة إلى الخلف ليتأكد من وجودها خلفه، فيما كانت تحاول التصرف باعتياد حتى لا تلفت الأنظار نحوها.

دقائق معدودة، فكانا واقفين أمام البيت. فتح الباب فدخلت متسللة، وبعده ألقى نظرة أخيرة على الزقاق، ثم طأطأ رأسه ودخل. كان أحمد ممدداً على السرير، وما أن رآها ماثلة أمامه حتى قام من مكانه بسرعة، فأمسك بيديها الباردتين، ثم تحسس ملامح وجهها كمن افتقدها لسنوات، ومرر يده على بطنها فاغرورقت عيناها، وبصوتٍ شجي تعاتبه عتاباً رقيقاً ممزوجاً بخيبة الأمل:

- لماذا يا أحمد.. لقد ضيعت كل شيء، نفسك وأهلك وأصدقاءك، ضيعتنا جميعاً..

استدار بوجهه عنها بعدما سحب يديه، وعاد إلى سريره والصمت يجثم على لسانه، والعرق يملأ وجهه، والدموع الساخنة تبلل لحيته المتشعثة. وبعد صمت طويل نطق قائلاً:

- فعلنا ما كان ينبغي فعله، ومهما حدث لي فإنني مطمئن الآن..

التفت نحوها، ثم أردف وقد ابتلع ريقه بصعوبة بالغة:

- أحتاج إلى مساعدتك حتى أغادر المدينة.

سألته باستغراب:

- إلى أين؟

- البلدة.

- ورجال الشرطة؟

هزَّ كتفيه، ثم قال:

- لا يهمني أمرهم؛ لأنني سأجد وسيلة للتخفي عنهم.

- وماذا لو...؟

بدأت بالنحيب مجدداً. لقد كانت عيناها حمراوين، ويداها مرتعشتين، غير أن ما أزمع عليه أحمد كان أشد وقعاً في نفسها؛ لأن فيه نهايةً له، وهذا ما تحاول دفعه عن تفكيرها بشدة. لم تكن لتتصور وجوده بين القضبان حيث التعذيبُ والتنكيلُ، لهذا كفكفت دموعها، ووطنت نفسها على مساعدته.

في الجهة الأخرى، كانت ثمة قاعة ضيقة تضم طاولة مستطيلة الشكل، حولها كرسيان متقابلان، أحدهما مهذب الشكل، مريح للجلوس، والآخر حديدي كله ويعسر الجلوس فوقه ساعة واحدة. كانت إنارتها خافتة، ولا تضم إلا نافذة واحدة تطل على قاعة واسعة الفضاء.

على الكرسي الأول، كان يجلس رجل بدين البنية، عريض المنكبين، له وجه سمين، وعينان واسعتان جاحظتان، وأنف مستطيل شامخ، وشارب مقوس طويل. يرتدي معطفاً أسود، وتحته قميصاً أبيض، وحذاءً ملمعاً بالسواد. كان يضع أمامه دفتراً كبيراً، وقلماً جافاً أزرق، ونظارة سوداء. ركز نظره مدة

طويلة في عيني توفيق حتى ذاب هذا الأخير واستسلم، فطأطأ بصره إلى الأرض.

ولجَ الغرفةَ شخصٌ طويل القامة، نحيل البنية، رشيق الحركة، يرتدي معطفاً وسروالاً أسودين، وحذاء بني اللون، مثلث الرأس.. كان يشع حيوية ونشاطاً، فنظر إلى توفيق، ثم تقدم نحو الرجل وقد أسر إليه كلاماً ما، فقام الرجل من على كرسيه مخاطباً توفيق:

- الجلسة ستبدأ الآن.. انهض.

رفع رأسه بحدة، فبدأ وجهه يتفصد عرقاً، ويداه ترتعشان بسرعة، فانطلق يجر قدميه كمن يأخذ نفسه إلى الموت في ظهيرة يوم مشمس.

سارا وسط البناية مسافة طويلة قبل أن يدلفا إلى القاعة الواسعة، والتي كانت تضم أناساً كثيرين يجلسون على كراسي حمراء اللون. أما في الجهة المقابلة، فقد كانت ثمة طاولة طويلة مستطيلة الشكل، ومغطاة بثوب أحمر داكن.

لم تمضِ بضع دقائق حتى صدر صوت جهوري يعلن بداية الجلسة، فكان توفيق واقفاً، وبالقرب منه يقف شرطي يرقبه بدقة. بدأ القاضي بقراءة الديباجة التي افتتح بها ملف القضية، وبعد ذلك، سأله قائلاً:

- ماذا تقول في الجرائم المنسوبة إليك؟

أجال بصره بين الجالسين، ثم أجابَ، وبكلماتٍ متقطعة:

- أنا لم أقترف أي جرم..

- إذاً، أنت تبرئ نفسك؟

طأطأ رأسه مشيراً إلى الموافقة، فأردف القاضي متسائلاً:

- وما دليلك على هذه البراءة؟

- أنا مجرد تابع..

- إذاً، أنت مشارك فيما نسب إليك؟

صمت لحظات، ثم عقب:

- أحمد هو من خطط للأمر، وقد عارضته منذ البداية..

- لكن، لمَ لمْ تخبرِ الشرطةَ بالأمر؟

- كنت أعتقد أنه مجرد كلام في الهواء..

استشار الجالسين عن يمينه وشماله، ثم أعطى الكلمة للمحامي الذي طرح بعض الأسئلة على توفيق، محاولاً إزاحة التهمة عنه، والمطالبة بالتخفيف من العقوبات؛ لأنه لم يكن مشاركا مباشرا في اقتراف الجرائم المنسوبة إليه. بيد أن كلامه هذا لم يجد نفعاً؛ لأن كل الدلائل تعزز التهمة وتؤكدها، فحتى الشهود أدلوا بما سمعوه ورأوه.

بعد انتهاء المحاكمة لم يصدر القاضي حكماً نهائياً حول القضية، وإنما تأجل الأمر إلى أن مرت جلسة محاكمة عمر في المكان نفسه، والأجواء عينها، وبحضور الأشخاص الذين كانوا حاضرين في جلسة توفيق.. لقد عمد القاضي إلى طرح الأسئلة نفسها على عمر، فحاول هذا الأخير دفع التهمة عن نفسه وإلصاقها بأحمد وحده؛ لأنهما أقرا أنه هو العقل المدبر لهذه

الأفعال المتهمين بها، والباعث عليها، ولعلّ هذا ما أشفع لهما. لقد فكر القاضي كثيراً، وضرب عين القضية وأنفها، ليعلن قراره في ختام الجلستين. تضمن القرارُ عشر سنوات سجناً نافذاً لكلّ منهما، وغرامات مالية اختلفت بين توفيق وعمر.

بعدما سمعا الحكم النهائي، ارتعدت فرائصهما حتى أغمي على توفيق، ثم مكثا في السجن المحلي أربعا وعشرين ساعة، وبعده تم نقلهما إلى سجن "عكاشة" حيث سيقضيان العقوبة هنالك.

كان يجلس القرفصاء، ورأسه مطأطأة إلى ركبتيه، ويداه معقودتان على ساقيه المرتعدتين. وبين الفينة والأخرى، يرفع بصره صوب الساعة الحائطية التي كانت عقاربها تشير إلى الثالثة مساءً، لكنه سرعان ما فتح علبة السجائر وشرع يدخن بشراهة، بحيث ما أن يدخن نصف السيجارة حتى يمرغها في المَنفضَةِ، ثم يسحب أخرى.. كان يدخن بطريقة جنونية، وفي كلّ رشفة يحس بالارتخاء، وتشوب عينيه سحابةُ نومٍ ثقيلةٌ. كان يلقي نظرة على سيجارته كأنه يحاورها بنظراته فحسب. وفي قرارة نفسه، يسألها عن سر الإدمان عليها؟ عن علاقته بها؟ فكان الجواب الوحيد الذي يقنعه، هو كونه يدخن ساعة الفرح والحزن على السواء، فهي تفرح لفرحه، وتحزن لحزنه.

وفجأة، بدأ يحدق بورقة وقلم برهة، حتى أدخل الاستغراب في نفس الشاب الذي كان ينظر إليه بتمعنٍ بعدما قام من مكانه يجوب الغرفة ذهاباً وجيئة، وهذا ما جعله يخاطبه محاولاً تهدئة نفسه:

- لمَ لا تجلس وتنتظر حتى تأتي، إذ لم يبقَ إلا القليل من الوقت وستغادر المدينة يا أحمد؟

التفت إليه بعدما تسمر في مكانه، ثم بدأ يفرك كفيه بطريقة جنونية، ووجهه ازداد شحوبا ووجوما، فعقب بكلمات سريعة:

- لقد تأخرت كثيراً... أخشى أن يراها أحدُ عناصر الشرطة.

وقعت هذه الكلمات وقع السهام في نفس الشاب، إذ بدا يفكر بتؤدة وتروٍ في الأمر.

كانت فاطمة تفتش حقيبتها بجنون، حيث تبحث عن قدر من المال كانت تخبئه منذ سنة ونصف. وما أن عزمت على المغادرة، بعدما وضعت المال في حقيبتها الصغيرة، حتى تحسست بطنها بحركة بطيئة، ثم التفتت إلى الغرفة مجدداً، فتذكرت أنها نسيت الجلباب الذي سيرتديه حتى يموه الشرطة، لذلك عادت لتأخذه، ثم أغلقت الباب وانصرفت دون أن تلتفت إلى الخلف.

مرت من الزقاق بخطوات سريعة، وما أن بلغت الشارع الرئيس حتى أشارت إلى سيارة أجرة صغيرة حمراء اللون، توقفت فركبت وهي تتنفس الصعداء، ثم ألقت نظرة أخيرة من الزجاج الخلفي حتى تأكدت من عدم لحاق أي أحد بها. كانت المدة التي تفصلها عن مكان تواجد أحمد عشر

دقائق، وبعدما مرت المدة ألْفَتْ نفسها أمام الباب حيث طرقته بهدوء بالغ بضع طرقات، ليباغتها صوت الشاب:

- من؟

- فاطمة.. فاطمة.

قالتها بصوتٍ شجيّ سريع، ففتح الباب وهو يحدثها:

- تأخرت..

دلفت إلى الغرفة مسرعة، فوجدته منتصباً متأهباً بعدما سمع طرقات الباب، فتسلم المبلغ المالي، ثم ارتدى الجلباب. خرج الشاب ليتفحص الزقاق جيداً، ويتأكد من كون الأمور على ما يرام. دقيقة، وكان أحمد يتسلل من الباب خفية، وما أن سار بضع خطوات إلى الأمام حتى سمع صوتاً قد هزّ كيانه، وارتعدت له فرائصه:

- توقف، وإلا أطلقتُ النار.

ظلّ ساكناً في مكانه بضع ثوانٍ، ثم جمع قوته وتقدم خطوة أخرى إلى الأمام، محاولاً أن يطرد نبرة ذلك الصوت الجهوري من أذنيه؛ لأن حركتَهُ قد شُلّت، وقدميه صارتا ثقيلتين وبالكاد استطاع أن يجرهما خطوة. خطا الخطوة الثالثة، فسمع الصوت نفسه، لكن بحدة أكبر من الأولى:

- توقف وسلم نفسك، أنت محاصر في الزقاق والشارع كليهما.

لم يستجِب لهذا الأمر، وبعد تفكير سريع، قرر تتمة خطوه إلى الأمام، فصوّب الآخر مسدسه تجاهه جيداً، وبدأ يحرك إصبعه ضاغطاً على الزناد

شيئاً فشيئاً، وما أن عزم على إطلاق النار حتى انقض الشاب على ذراعه يجرها بقوة، فاضطربت حركة الشرطي وأطلق بضع طلقات لم تصب أحمد الذي ركض تجاه الشارع الرئيس.

لقد ظل الشاب يتعارك مع الشرطي معركة حامية الوطيس. أما أحمد، فقد ألفى نفسه في الشارع، يمشي بخطوات سريعة وحقيبته فوق كتفه اليمنى. تابع سيره بثبات حتى سمع صوتاً من الخلف يتوعده:

- خطوة واحدة إلى الأمام، ستُزهق روحك..

كان الشارع محاصراً برجال البوليس الذين كانوا يرصدون حركات فاطمة ليل نهار، ودون أن تدري بذلك حتى استطاعوا أن يصلوا إلى مكان اختبائه. لقد علمت أن المخبر الذي أذنَ لها بمغادرة المخفر ذلك اليوم، كان قد وضع لها طعماً دون أن تتفطن لذلك، فانطلقت تبكي أسفاً وحسرة على غبائها.

ألقى نظرة إلى الخلف وأنفاسه متصاعدة، وعيناه ذابلتان. كان يلهث بسرعة حتى جف ريقه ويبست شفتاه، وامتقع لون وجهه الذي ازداد شحوباً، فرمق الشرطيَّ الذي يحدق فيه بحدة، وبوجه متجهم عبوس، فعلم أنه لن يخطئه هذه المرة. كان يفكر في التقدم إلى الأمام ما دام يقف على مشارف النهاية التي كانت أمراً مرتقباً، وسرعان ما لمعت فكرة الاستسلام في ذهنه، لكنه أغمض عينيه، وابتلع ريقه بتباطؤ، ثم تنفس نفساً عميقاً وطويلاً، فخطا خطوة، وبعدها بثوان سمع صوت رصاصة طائشة اخترقت ساقه حتى صرخ وانحنى عليها، فوضع يديه عليها محاولاً وقفَ نزيف الدم المتدفق.

اقترب منه الآخر بضع خطوات، لكن أحمد كان قد ضاعف صراخه بفعل الألم، وفي كل صرخة، تجري دمعة ساخنة على خده، ثم يلتفت يميناً وشمالاً كمن يبحث عن مخلص من هذا الألم الشديد. رمق حجراً صغيراً، فمد يده ليأخذه قبل أن يمثل الشرطي أمامه، وما أن جمع قبضته على الحجر، والتفت نحوه محاولاً رفع ذراعه ليسدد الحجر تجاهه حتى باغته برصاصة ثانية، لم تخطئ قلبه، فظل صامداً في مكانه بضع ثوانٍ، يبتسم ابتسامة عريضة وقد مُلِئ فمه دماً، زرعت الرعب في نفس الشرطي، فانطلق يضاعف من إطلاق الرصاص بجنون حتى اخترق صدره كله، فسقط أرضاً والدمعُ يتهلّلُ من عينيه.

ألقوا القبض على الشاب وفاطمة، وفيما يجرونهما صوب السيارة، وقفت متسمرة في مكانها، حيث تنظر إليه وقد صار جثة هامدة مضرجة بدمائها القانيةِ، فتعالت صرختها حتى جعلت الجميع ينظر إليها نظرة رأفة وشفقة. جرت يدها من يد الشرطي، فانطلقت تركض صوبه ونحيبها يملأ الأرجاء. دفعت شرطياً آخر كان يقف جانبه بقوة، ثم ارتمت على صدره مسندة رأسها، كأنها تتحسس سكون نبض قلبه. وبعد دقيقتين، كفكفت دموعها بيديها المُخَضَّبَتَيْنِ بالدم المرتعشتين، وما أن همت بالوقوف حتى رمقت جزءاً صغيراً من الورق الأبيض يظهر من جيبه، فانحنت عليه ثم سحبته بتريث، فتحته وهي ترفع شعراتها المتهدلة من فوق عينيها، وقرأت:

- "لم أنسَ هذه اللحظة التي سأفارق فيها الحياة؛ لأنني حلقة في سلسلة متماسكة تعيد نفسها باستمرار، وقد خلقت لأمرَّ من هذا الطريق المليء بالأشواك، والذي مرَّ منه أناسٌ قبلي، وآخرون سيمرون بعدي ما دامتِ الروحُ التي تحركنا فكرةً خالدةً فينا.. لا تحزني يا فاطمة، لأنني أديتُ مهمةً كان لا بد منها في ظل الواقع القاسي الذي نشأت فيه، وحاولتُ، كما فعل منْ سبقني، تغييرَهُ بكل ما أوتيت من قوة.. لا تحزني؛ لأن الربيع سيخضرُّ من قطرات دمي الأبية، ولقاءنا سيتجدد كلما نظرتِ إلى المولود الذي لم يولد بعد؛ لأنك حُبلى بالثورة كما جميع الأمهات اللائي يقبعن في الهامش، ولا يلدن إلا الثوارَ الأحرارَ الذين سيثورون على الإذلال والاستغلال في المستقبل، وينتزعون حقوقهم من يد الإمبرياليين الجدد الذين يعيشون بين ظهرانيهم، ويخشونهم خشيتهمُ البذرةَ الثائرةَ التي يحملونها في أنفسهم.. فلا تحسبيني ميتاً، لأن الرّوح الأبية لم تمُتْ بعدُ ما لمْ يمتِ الظلمُ".

ثم وضعت الورق فوق بطنها، وأغمضت عينيها.

تمت بعون الله

****

السيرة الذاتية

الاسم: **محمد الورداشي**

مغربي الجنسية

- إصداراته:

- **حينما يتنكر الوطن لبنيه (نصوص قصصية)، فاس 2019.**

- **القرية المهجورة (نصوص قصصية)، مصر 2020.**

****

عبرات على أخاديد الوطن

رواية

محمد الورداشي

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com